مكتشفو العالم الجديد

بتأليف

جوزيف برجر

السيد يوسف نصر

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية العلوم العربية والاجتماعية

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت ٤٨٣٩٤٧٣ - اسكندرية

مكتشفو العالم الجديد

تأليف / چوزيــف برجـــر

ترجمة وتقديم

الدكتور / السيد يوسف نصر

أستـاذ التاريخ الحديث والمعـاصر المشـارك

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية العلوم العربية والإجتماعية

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت ٤٨٣٩٤٧٢ - اسكندرية

ترجمة كتاب

DISCOVERERS OF THE NEW WORLD

By

Josef Berger

New York, 1972

تقديم المترجم

يعالج هذا الكتاب موضوعا تاريخيا على جانب من الأهمية، فلقد كان العالم حتى نهاية القرن الخامس عشر على غير علم بما يعرف فى أيامنا هذه بالامريكتين. وفى هذا الوقت كان يطلق على المحيط الأطلسى "بحر الظلمات" ومن المحتمل أن يرجع ذلك الى التأخر العلمى، من حيث رسم الخرائط، ومن حيث ايجاد الوسيلة التى تزيل هذا الغموض ، أو الظلام، الذى خيم على هذه المنطقة من العالم، والتى أصبحت تضم بين جنباتها فى تاريخنا المعاصر أقوى وأعظم دولة على الأرض، ألاوهى الولايات المتحدة الامريكية.

ويرجع هذا الغموض أيضا الى تأخير الصناعة وبخاصة السفن العملاقة أو السفن القوية القادرة على عبور هذا المحيط (الأطلسى). فضلا عن تأخر علم الخرائط والملاحة والفلك، علاوة على عدم رغبة بعض الأشخاص فى حب المغامرة، وفوق كل ذلك، فإن مشاكل العالم الاقتصادية فى هذه الفترة كانت محدودة، لهذا كانت تطلعات العالم فى ذلك الوقت قاصرة على المناطق المعروفه آنذاك.

ولكن بعد ظهور القوميات فى أوربا، التى تعتبر نتيجة من نتائج عصر النهضة، وبعد ازدياد التقدم العلمى، والمعرفة، وبعد التقدم فى مجال الصناعة، أدى كل ذلك بالناس الى حب المغامرة، إما من أجل التوسع، فيما وراء البحار، وإما من أجل معرفة الأماكن المجهولة فى العالم.

وكان من دوافع حب المغامرة هذه الحصول على توابل الشرق دون وسيط. ففى نهاية القرن الحادى عشر ومابعده، كانت أوربا تحصل على سلعها التجارية الأسيوية من أسواق الشام ومصر وأسيا الصغرى. وكانت هذه التجارة فى أيدى التجار المسلمين. وكان من المستحيل على تجار أوربا المسيحيين القيام بطريقة مباشرة بالاستيلاء على هذه التجارة، والسبب فى ذلك راجع الى ان المسلمين كانوا هم المسيطرون الى حد ما على الطرق التجارية فى المحيط الهندى وفى الأقطار المجاورة له.

ورغم ذلك فقد قبل الغرب الأوربى هذا الوضع فترة طويلة من الزمن، لأنه كان فى حاجة ماسة الى تلك التوابل التى لاتزرع فى بلاده، والتى لايمكنه الاستغناء عنها، وبخاصة فى ذلك الوقت الذى لم يكن قد اكتشف فيه بعد وسائل التبريد الحديثة.

ومن المعروف أن تجارة التوابل كانت تشكل حلقة الاتصال بين الشرق والغرب عبر العصور، وقد أوجدت هذه التجارة الطرق البحرية والبرية على حد سواء. وكان المماليك فى مصر والشام يتحكمون فى هذه التجارة، فعندما تصل السلع التجارية من الهند توضع فى مستودعاتهم الموجودة شرق البحر المتوسط وبعد ذلك يأتى التاجر الايطالى لشرائها وبيعها الى الأوربيين بسعر غالى. واهتم بهذه التجارة ولعدة قرون طبقات غنية من أوربا الغربية، فكانوا يحصلون على كل مايلزمهم من توابل وحرير وأحجار كريمة وعاج، بالاضافة الى السلع التجارية النادرة التى تنتجها أوربا.

وزادت أهمية هذه السلع التجارية بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، لأن العثمانيين بعد أن هيمنوا على هذه المدينة عرقلوا التجارة وأغلقوا طرقها البرية التى تمر من وسط آسيا الى أوربا. لهذا فكر الأوربيون، وبجدية فى ايجاد طريق بديل للوصول الى مصادر تجارة الهند، دون الحاجة الى وسيط.

وقد تبنت هذه الفكرة دولتان أوربيتان هما دولة البرتغال ودولة أسبانيا، ففى هذه الفترة كان يوجد طريقان بحريان فقط يوصلان الى جزر الهند الشرقية أحدهما يمر جنوبا مع ساحل افريقيا، فرأس الرجاء الصالح ثم يصل فى النهاية الى الهند، ويمر ثانيهما عبر المحيط الأطلسى فى اتجاه الغرب الى الهند أيضا. وقد ساعد الدولتان على قيامهما بهذه المهمة أنهما كانتا فى منأى عن الحروب الأوروبية التى استمرت فترة طويلة من الزمن، ولكن هاتين الدولتين اتجهتا وجهة أخرى نحو هذا العمل الكشفى العظيم، واستعانت فى ذلك بالبحارة الإيطاليين لما لهم من خبرة كبيرة فى هذا المضمار، فكما نعلم فإن ظروف إيطاليا تختلف عن ظروف أيه دولة أخرى، من حيث موقعها الجغرافى، ونظامها السياسى، وعلاقاتها بالدولة العربية الاسلامية.

ومن المعروف أن إيطاليا هذه قد قامت بمحاولة كشفية عام ١٢٧٠م، كان قد قام بها بحارة من جنوه، فقد وصلوا بسفنهم الشراعية الى جزر الكنارى. وفى عام١٢٩١م

خرجت بعثة كشفية جنوية أخرى من إيطاليا وسارت مع ساحل افريقيا الغربى وتقول المصادر التاريخية أن هذه البعثة قد دارت من حول رأس الرجاء الصالح، فوصلت الى البحر الأحمر ولكنها مع ذلك لم تعد لأسباب غير معروفة.

وفيما بعد، وعلى وجه التحديد أى فى عام ١٤١٥م، وصلت بعثة كشفية من البرتغال إلى الشمال الإفريقى واحتلت سوتا Ceute (أى سبته) وتولى هنرى الملاح حكمها، من قبل والده. وفى عام ١٤١٨م، اكتشف البرتغاليون جزيرة الماديرا، وفى عام ١٤٣٩ اكتشفوا جزر الأزورا. وفى عام ١٤٤١، طافوا حول رأس البلانكو. وفى الفترة مابين ١٤٤٤ - ١٤٤٥، وصل دينز دياز الى مصب نهر السنغال. وفى عام ١٤٧٥، وصلت السفن البرتغالية الى جزيرة فرناند وبو. وفى عام ١٤٨٢ تمكن المغامر البرتغالى بارثلميو دياز من كشف مصب نهر الكنغو وطاف حول رأس الرجاء الصالح. وفى عام ١٤٩٧ م قام فاسكو دى جاما على رأس بعثة كشفية برتغالية، ودار حول رأس الرجاء الصالح وواصل مسيره الى قاليقوت فى الهند عام ١٤٩٨ م. وبهذا يمكن القول بأن البرتغال قد نجحت فى الوصول الى مصادر التوابل فى جنوب شرق آسيا. وأصبحت خطرا يتهدد النفوذ العثمانى فى المحيط الهندى والبحر الأحمر.

وأما اسبانيا فقد أعدت بعثة كشفية كانت تحت قيادة كرستوفر كولمبس عام ١٤٩٢، للذهاب الى الهند عن طريق الغرب، وذلك للبحث عن مخارج وخلجان وأنهار ومضايق، توصلهم الى جزر الهند الشرقية. وقد نجحت هذه البعثات الأسبانية المتتالية من كشف هذا العالم المجهول مصادفة، التى أطلق عليه اسم العالم الجديد. ويعتبر كشف هذا العالم فتحا جديداً للإنسانية جمعاء، وتوالت بعد ذلك البعثات الكشفية الأسبانية إلى العالم الجديد، ففى عام ١٤٩٩ ذهب لونزو أوجيدا الى فنزويلا. وكان جل اهتمام الأسبان الحصول على الذهب والفضة، لأن قوة أية دولة فى هذا الوقت كانت تقاس بما تمتلكه من ذهب وفضة، وفى عام ١٥٢٢، نجح فرناندو كورتيه فى الوصول إلى امبرطورية الأزتكس فى أمريكا الشمالية، وانتصر على حاكمها وسلب أموالها وقتل أبنائها، وفى عام ١٥٣١، أبحر بيزارو نحو الجنوب إلى امبرطورية الإنكا الواقعة فى بيرو وتخلص من حاكمها اتاهوليا، وضمها الى السيطرة الأسبانية.

وبعد ذلك ساهمت بريطانيا فى هذا الكشف، ففى عام ١٤٩٧م، أبحر جون كابوت من ميناء بريستول، واتجه الى شمال أمريكا، كى يجد مخرجا يوصله إلى المحيط الهادى، وفى القرن السادس عشر قام دوكنز برحلة كشفية إلى جزر الهند الغربية. وفى نفس القرن قام من بعده دريك لنفس هذا الغرض، ولقد ساهم هذان المغامران فى إزعاج النفوذ الأسبانى فى جزر الهند الغربية بصورة كبيرة للغاية. ولقد كان لهذين المغامرين آثار سيئة على العلاقات الأسبانية البريطانية فى هذا الوقت.

وكذلك ساهمت فرنسا فى هذا العمل الكشفى. ففى عام ١٥٢٤، أبحر فرازانو من جزيرة غير مسكونة تقع بالقرب من جزر الماديرا وبعد ذلك، توجه إلى العالم الجديد.

وفى ٢٠ من شهر ابريل عام ١٥٣٤ أبحر جاك كارتيه Jacque Cartier إلى العالم الجديد أيضا، وكان الهدف من هذه البعثات الكشفية المختلفة الوصول إلى الهند، ولكن بعدما تم كشف العالم الجديد تركزت كل جهود هذه البعثات حوله. ومن هنا بدأ الصراع الدولى الرهيب بين أسبانيا وبريطانيا بصفة خاصة، وبين دول أوربا بصفة عامة، وهذا ماسنراه فى كتابنا هذا.

ويعتبر هذا الكتاب بحق إضافة جديدة الى المكتبة العربية لما يحويه من معلومات على جانب كبير من الأهمية، فلم توجد هذه المعلومات فى أى مصدر آخر دون مبالغة، وإن وجدت فإنها ضئيلة للغاية ولا تكاد تذكر، فتوجد على شكل شذرات لاتفى بالغرض المطلوب.

وأدعو الله أن أكون قد وفقت فى ترجمة هذا العمل العلمى، فعليه الاعتماد وقصد السبيل انه نعم المولى ونعم النص

المترجم

د. السيد يوسف نصر

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك

مقدمـــة "لورنس روث"

موضوع هذا الكتاب الذى بين أيدينا، عن الاكتشافات التى تمت عبر بحار خطيرة، وعلى طول سواحل غير محددة على خريطة، وعبر مناطق داخلية غير معروفة. وتمتد هذه الإكتشافات من أواخر القرن الخامس عشر وحتى أواخر القرن الثامن عشر، أى من منتصف عصر النهضة وحتى بداية عصر الثورة الصناعية. واستغرق هذا السجل حوالى ثلاثة قرون خاصة بالرحلات الهامة وغير الهامة.

ويبدو لنا إذا نظرناإلى الماضى أنها واحدة من أهم الفترات المثيرة، بل كانت أكثرها كشوفا فى تاريخ العالم، وفى أثناء ذلك كانت الآفاق الطبيعية بالنسبة للرجل الأوربى غير محدودة المعالم. ونتيجة لذلك فإن إدراكه للعالم الذى يعيش فيه كان رحبا بحيث يفوق الادراك فى ميادين السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والمفاهيم الدينية. وقد خلفت روايات رحلات الكشف والارتياد- التى من خلالها حدث هذا التغير من عالم العصور الوسطى إلى عالم العصور الحديثة - أنواعا من الكتابة التاريخية التى تم الحصول عليها من التقارير الشخصية المكتوبة عن المغامرات بأقلام الضباط العظام بصفة شخصية، أو بأقلام مساعديهم الموثوق بهم.

وهذه الروايات بدءا من أول رسالة لكولمبس فى عام ١٤٩٣ م، سجلت الاكتشافات بحراً وبراً، وحددت على الكرة الأرضية مواقع القارات الأمريكية التى لم تكن معروفة من قبل. كما حددت شكلها وقدرت حجمها، ووحدت العناصر المبعثرة التى اكتشفت تدريجياً عبر سنين من رحلات لم يكن بينها أى نوع من التنسيق. وتم الحصول على هذا من الروايات الشخصية للمستكشفين الأول، التى لم تكن تعدو مجرد إيضاحات عن منجزاتهم. ونتيجة لهذا فقد تبلورت فكرة المغامرة الوعرة التى شغلت أوربا الغربية، والتى قدمت لنا كتاب جوزيف برجر الذى نتتبع من قراءته المحاولات الكشفية المتعاقبة

التى تم عرضها فى سياق واحد فى مجاهل أطراف الأرض التى تم ربطها معا من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب.

وقد كتب المستر برجر قصته عن الاكتشافات العظيمة والروايات والفتوحات بلغة سهلة وواضحة دون أدنى قدر من التبسيط الزائد. وهذا التناول الذى يدعو إلى الإعجاب، جعل من كتابه واحداً من الكتب التى يقبل عليها الكبار بإحساس مرهف،

اللـــــغز

كانت أمريكا فى يوم من الأيام أكبر سر على الأرض، وكان العالم الجديد يمثل الحزام العظيم لقارتين إرتبطتا عبر النصف الغربى من الكرة الأرضية بحيث يعادل حجم أوربا بأربع مرات. ولم يعرف الجغرافيون الكبار فى أوربا منذ خمسمائة عام أين يوجد العالم الجديد؟

وكانت هذه حقيقة، ساهم فيها بعض الأوربيين فيما بعد.

فمنذ عشرة قرون تقريبا، عبر بعض المغامرين من الفيكنج شمال المحيط الأطلسى من النرويج إلى أيسلندا، ثم الى جرينلاند، ثم إلى شمال أمريكا – ومكثوا هناك سنوات قليلة. وفى بعض الأحيان كانت جماعات من الصيادين التى قدمت من أجزاء أخرى من أوربا تسافر مسافات بعيدة، وتتجول هناك ومن المحتمل أن تكون هذه الجماعات قد شاهدت الأرض (أمريكا)، ومع ذلك فلم يدرك أحد أفراد هذه الجماعات، كم تكون مساحتها؟ أوكم تكون أهميتها؟

اعتقد الجغرافيون فى القرن الخامس عشر فى وجود جزر متناثرة على طول المسافة الواقعة بين أسبانيا غربا، وحتى الصين شرقا، وبالطبع لم يحلموا فى شىء كالمحيط الهادىء العظيم، الذى يقع فى الغرب فيما وراء قارتين – وهو يزيد فى الحجم مرتين عن المحيط الأطلسى.

وقد عرف هؤلاء العلماء أن الأرض لم تكن مسطحة، وأن شكلها كشكل الكرة، ولو كانوا قد رغبوا فى توضيح معالم سطحها ، لكانوا قد رسموا المحيط الأطلنطى أكثر اتساعا عما هو عليه فى الحقيقة وإنهم بذلك سيمدون قارة آسيا بالكثير من آلاف الأميال نحو الشرق، فيما وراء حدودها، كى تصل شواطئها إلى الأطلسى. واعتقد هؤلاء الرجال أيضا انه عندما ينظرون الى البحر بإمعان من أسبانيا، أو البرتغال، فانهم يشاهدون على الجانب الآخر من هذا البحر كلا من كاثى Cathay،وسبانجو Spangu اللتين تقعان على الجانب الآخر من هذا البحر(المحيط الأطلسى). كما يشاهدون الجزر التى تعرف بالصين واليابان، وجزر البهار، التى تقع جميعها فى

الشرق الأقصى. ولم يحاول أى شخص الإبحار نحو الغرب ليصل إلى جزر الهند. وقد تحدث البحارة عن المحيط الأطلسى بخوف ، شأنهم فى ذلك شأن الرومان الذين سموه "ببحر الظلمات" ولم يعرف شخص ما، ماهى العواصف والمخلوقات التى تهددهم؟ وماهى حيات البحر الضخمة، والرعب الذى يكمن فيه. لهذا إهتم قليل من البحارة بالوقوف على الحقيقة.

وإذا رغب مسافر فى الذهاب الى جزر الهند، كان عليه أن يتجه نحو الشرق، ثم يسير برا مســافة بعيدة، كى يصل إلى فارس، وبعد ذلك يقطع آلاف الأميال عبر آسيا، ومارا فوق الجبال العالية، كما يعبر رمال الصحراء الحارقة، علاوة على ذلك فإن اللصوص كانوا ينتظرونه على طول الطرق الموحشة.

ولم يقم بهذه الرحلة سوى عدد قليل من المغامرين مثل ماركو بولو. ففى هذا الوقت كانت أوربا دائمة الحديث عن جزر الهند، فقد رويت قصص مدهشة – كان الكثير منها صادقا – عن الأبهة وعن السقوف الذهبية، وعن توابل الشرق التى تزدحم بها مدنه، وعن الموانىء المزدحمة أيضا بمستودعات البضائع المكتظة بالكماليات

وقد انتشر الحديث فى أوربا عن جزر الهند، لأنها كانت تنتج كثيرا من الأشياء اللازمة للحياة، والتى يشتاق إليها الأوربيون، ومع ذلك كانوا لايستطيعون شراءها من أى مكان آخر.

فكان يوجد على موائد الأغنياء الفلفل، كما توجد التوابل النادرة الأخرى فى المطبخ، فضلا عن إرتدائهم للملابس الحريرية وامتلاكهم للمجوهرات، فقد امتلك البعض منهم الياقوت وعقود اللؤلؤ. وكان يتم الحصول على كل هذه الأشياء من جزر الهند، ومن الشرق الأقصى. وكانت هذه السلع تنتقل من تاجر لآخر بواسطة السفن وقوافل الإبل. كما كانت تباع وتشترى أكثر من مرة، بل كانت تنتقل ببطء من قطر لآخر، حتى تصل فى النهاية إلى أوربا.

وبعد ذلك جاءت هذه الفترة – منتصف القرن الخامس عشر– التى توقف فيها الإمداد بهذه السلع، بعد أن أغلق طريق التجارة الرئيسى البرى . فقد حدث هذا بسبب الحرب التى دارت رحاها بين الأتراك من ناحية، والنصارى من ناحية أخرى . وقد

انتصر الأتراك على النصارى، وتوغلوا فى مدينتهم المسيحية "القسطنطينية" وحاصروها عام ١٤٥٣ م، ومند ذلك التاريخ كانت السلع التجارية تأخذ طريقها من جزر الهند إلى أوربا عبر القسطنطينية حيث أن الأتراك كانوا قد قطعوا كل الطرق البرية. وفى نهاية الأمر لم يترك الأتراك أى شىء يمر عبر القسطنطينية.

وبدأ رجال قليلون سواء من راسمى الخرائط أو قراء الكتب أو من الفلكيين فى سؤال أنفسهم عن أفضل الطرق التى توصل إلى جزر الهند بحرا، وقد ثبت ان هذا السؤال كان بدايه لبحث انتشر وامتد إلى أماكن كثيرة بعيدة، وامتد أيضا إلى مئات السنين.

وفى الحقيقة. كان هذا البحث خاصاً بالأرض ، ففى أثناء إجرائه. حدثت تغييرات واسعة فى حياة الناس، بل فى حياة الأمم، فقد تقرر طرح أسئلة كثيرة وهامة، منها على سبيل المثال سؤال هام، مفاده إنه يتعلق بكيفية وجود أمريكا، وماهى نوعيتها التى كانت ينبغى أن نولد فيها، وهل من المحتمل أننا سنعيش فيها اليوم؟

ولم تصل الطرق التى ظهرت على خرائط رسامى القرن الخامس عشر إلى مسافات بعيدة، فبعد السير مئات قليلة من الأميال تصبح معرفة الرواد عن هذه الطرق مبهمة وغير واضحة، لهذا اعتقد هؤلاء الرسامون فى وجود طريقين بحريين من أوربا إلى جزر الهند.

وكانت إحدى هذه الطرق المقترحة تتجه نحو الجنوب على طول ساحل افريقيا، ففى عام ١٤١٥م، قام بحارة شجعان من البرتغال برحلة كشفية، وكانوا تحت قيادة الأمير هنرى الملاح، وقد بدأوا فى التقدم شيئا فشيئا مع هذا الطريق، حتى وصلوا إلى جنوب افريقيا، وداروا من حولها. وبعد ذلك واصلوا رحلتهم عبر المحيط الهندى حتى وصلوا إلى الشرق الأقصى.

وكان فاسكو داجاما الرجل الأول الذى وصل إلى الشرق عن طريق البحر من هذا الطريق، فهو الذى أبحر من لشبونة عام ١٤٩٧م، وكان على رأس بعثة تتكون من أربع سفن دارت من حول رأس الرجاء الصالح فى جنوب افريقيا، ووصلت هذه البعثة الى ميناء قاليقوت عام ١٤٩٨م.

واعتقد رساموا الخرائط أيضا - فى وجود طريق آخر - يمر عبر المحيط الأطلسى. فقد أبحر البرتغاليون آلاف الأميال فى المحيط الأطلسى نحو الغرب كى يكتشفوا، ويستعمروا جزر الأزورس، ولكن لم يتجاسر شخص واحد بعد ذلك على عبور "بحر الظلمات" الذى يقع نحو الغرب فيما وراء هذه الجزر.

ولم يتجاسر شخص آخر على القيام بمثل هذه الرحلة، إلا فى عام ١٤٩٢ م. وذلك عندما قام كرستوفر كولمبوس على رأس بعثة مكونة من ثلاث سفن حيث أبحر من أسبانيا حتى وصل إلى جزر الكناريا التى توقف عندها بعض الوقت، وبعد ذلك اندفع إلى الأمام فى داخل بحر مجهول وواسع.

وبعد مرور سنوات قليلة، وبعد القيام بعدد ضئيل من الرحلات جاءت أوربا لتواجه الحقيقة التي تتمثل فى الأرض التى اكتشفها كولمبوس والتى لم تكن جزر الهند "الشرقية". بدلاً من الوصول إلى جزر الهند وصل كولمبوس إلى العالم الجديد- الذى وقف عائقا فى طريق تحقيق ذلك الهدف الكبير، الأوهو الوصول إلى (جزر الهند الشرقية).

وعلى سبيل المثال، فإن النمل عندما يعترض طريقه عائق ما كحائط غير متوقع فإنه على الرغم من ذلك يواصل محاولاته فى التقدم. ومن هذا المنطلق بدأ المغامرون من العالم القديم فى الانتشار على طول السواحل الشمالية والجنوبية لأمريكا فى محاولة لايجاد طريق يؤدى الى الشرق فقد بحثوا عن مخارج وخلجان ، وأنهار ، وبحثوا ايضا عن مضايق تقودهم جميعا إلى جزر الهند.

وبمرور الوقت، عرفوا كم تكون ضخامة عقبة العالم الجديد، ومع ذلك استطاع هؤلاء المغامرون التوغل آلاف الأميال فى المناطق الشمالية القاحلة، وبقدر ماتعمقوا فى التوغل فى الداخل، بقدر ماتجاسروا على الوصول إلى الجنوب، وهناك وجدوا أمامهم مانعاً صعباً لايمكن عبوره"تمثل هذا المانع فى العالم الجديد"

وقد قادهم بحثهم إلى الكشف عن قارتين كبيرتين، وفى نهاية المطاف تمكنوا من كشف العالم الجديد منطقة تلو الأخري على امتداد الساحل الأمريكى من الشمال إلى الجنوب وبعد ذلك أكملوا رسوماتهم ولكنهم - لكى يقوموا بعمل كشفى كهذا- كان

عليهم أن يعرضوا حياتهم للخطر من أجل الوصول إلى الحقيقة.

وقد استغرق ذلك منهم أكثر من ثلاثمائة عام، وكان من الصعب أن نتخيل أي شيء أكثر إثارة من الأحداث التي وقعت بعد وصول الأوربيين إلى أمريكا، والذين ساروا على الشاطئ، واعتقدوا أن هذه المناطق هي جزر الهند، فبدلا من الذهاب إلى الهند توغلوا في داخل أمريكا (اللغز الكبير).

بحـــر الظلمـــات

لم تكن مغامرة كرستوفر كولمبس عام ١٤٩٢م، مثيرة للغاية، بسبب حدوثها، ولكن ربما لأنها لم تحدث أبداً مرة ثانية، ومع أن عوامل كثيرة قد عرقلت كشفه لأمريكا، إلا أنه قد أنجز غالبيتها.

فكان كولمبس قد قرأ تقريرا ممتعا عن جزر الهند فى كتاب بولو الإيطالى، الذى سافر بالطريق البرى عام ١٢٧٥م، أى منذ قرنين من الزمان الى كاثى Cathay (الصين) الواقعة فى جهة الشرق، وقد قطع ماركو بولو هذه الرحلة فى ثلاث سنوات، كى يصل الى هناك. وفى ذلك الوقت كان الناس قد عرفوا أن الكرة الأرضية كروية، واندهش كولمبس لهذا، وتساءل بالقول: هل كان هذا الطريق أسهل وأقصر، وهل من الممكن محاولة الوصول إلى الشرق عن طريق البحر. والسير فى اتجاه الغرب عبر الأطلنطى؟ وسنعرف الإجابة عن هذا السؤال من خلال دراستنا لهذا الكتاب.

وكان كولمبوس قد قرأ أيضا كل كتاب بل كل خريطة تتعلق بهذا الموضوع "موضوع الوصول إلى جزر الهند" كما كتب خطابا إلى شخص اشتهر فى ذلك الوقت بمعرفته الغزيرة للجغرافيا، حتى أصبح على درجة كبيرة من المعرفة فى مجال الجغرافيا تفوق معرفة أى شخص غيره فى العالم. وقد عرف هذا الرجل الذى كتب له كولمبس خطابا باسم السيد باول Master paul الطبيب أو المعروف باسم باولو توسكانيلى Paolo Toscanelli، وكان يعمل فلكيا فى فلورنسا بإيطاليا، وقد كشف له كولمبوس عن خطته ، وسأل الدكتور توسكانيلى التفكير فيها.

وقد أجاب الدكتور توسكانيلى بقوله: إن الخطة التى وضعها كولمبس ممتازة وعظيمة، وقال : إذا وصل كولمبس إلى جزر الهند فإنه يكون قد قطع مسافة قدرها خمسة آلاف ميل، وبالتخمين غير الدقيق، فإن هذه المسافة تمثل المسافة بين البرتغال والصين – وبالطبع سوف يكرم كرستوفر كولمبس فى كل أنحاء العالم. وبناء على ذلك أعطى الدكتور توسكانيلى إلى كولمبس خريطة العالم المعروفة فى ذاك الوقت.

ولم يكن تعضيد توسكانيلى يعنى تعضيد آمه، لذا كان من الواجب أن يكون لدى

كولمبس سفن وبحارة. ومن أجل هذا لم يجد أمامه من يستطيع مساعدته سوى الملوك والملكات.

ومن هنا بدأت متاعبه، ففى بداية الأمر ناقش خطته عام ١٤٨٤م، مع الملك جون ملك البرتغال الذى لم يهتم بهذا (المشروع) لهذا رفض كولمبس الإنتظار بعد عدة شهور من مقابلته للملك جون.

وبعد ذلك حاول كولمبس مع أسبانيا، فكان قد تقابل مع كل من الملك فرديناند والملكة ايزابيلا، وشرح لهما خطته، وبعد ان استمعا إليه تشاورا مع مستشاريهما، وانتظر كولمبس منذ ذلك الحين ست سنوات، كى يحصل على موافقة ملكا أسبانيا، ولكن دون جدوى، ومع ذلك كرر مطلبه مرة ثانية، ولكن قوبل هذا المطلب بالرفض من جانب ملوك اسبانيا ايضا، لذا شرع كولمبس فى السفر إلى فرنسا، فى محاولة لاستمالة الملك الفرنسى، وذلك للمساهمة فى هذا المشروع المتمثل فى الكشوف الغربية، ولكن دون جدوى أيضا، وفى نفس الوقت، كان لويس دى سانتا نجل lewis de Santangel يمثل القوة الرسمية فى البلاط الملكى الأسبانى، وقد نصح الملكة ايزابيلا لتعيد نظرها فى الكشوف الجغرافية فوافقت على خطة كولمبس، وارسلت رسولا من طرفها لإحضاره، حيث كان على مسافة أربعة أميال من المدينة التى تقطن بها الملكة.

وهكذا صدر القرار فى الدقيقة الأخيرة فأنقذت المغامرة الكبرى فى اللحظة الأخيرة.

وقد صدر الأمر الملكى إلى كولمبس ببدء الرحلة من مدينة بالوسPalos الصغيرة الواقعة فى الجنوب الغربى من أسبانيا، وقد نص القرار على منح كولمبس مركبين شراعيين صغيريين، هما المركب نيناNina والمركب بنتاpinta، وعلاوة على ذلك استاجر كولمبس سفينة لنفسه عرفت باسم سنتا مارياSanta Maria .

وفى ذلك الوقت ايضا ، كان على كولمبس الحصول على الرجال من سكان مدينة بالوس الذين كانوا يحصلون على أرزاقهم من عملهم كبحارة، وكصيادين للسمك ولكن لم يرغب هؤلاء البحارة فى المساهمة فى أى جزء من رحلة كولمبس.

لهذا تعرض المشروع للمرة الثانية للفشل، ولكن الضابط البحرى مارتن الزونو بنزو Martin Alsono Pinzon كان قد خطا خطوة لإنقاده. ومن المعروف ان هذا الضابط كان أنشط ربان سفينة فى أنحاء هذه البقعة، وقد أحب مشروع كولمبس، وقال هنا توجد فرصة البحارة فى تحقيق بعض المكاسب المالية، ويرجع ذلك الى أن الملك كان قد قرر مكافأة لأول بحار يوافق على الإشتراك فى الرحلة، وتمثلت هذه المكافأة فى حصول البحارة على جزء من الفوائد المالية (التى تحققها البعثة)

ومع ذلك فقد أصر البحارة على عدم الموافقة، ولكنهم وافقوا بعد ذلك بسبب اشتراك مارتن الونزو بنزو فى هذه الرحلة ولأن كولمبس كان قد اختاره ليكون ربان المركب بنتا، واصطحب الونزو معه اخواه اللذين كان لكل منهما تاثير على الآخر. وبلغ عدد البحارة الذين تطوعوا للعمل فى هذه البعثة ٩٠ بحاراً. واستغرق إعداد كولمبس لسفن الأسطول الصغير لتكون مناسبة ومنظمة تنظيماً جيداً عدة شهور، ولم يعرف أى شخص على وجه الدقة سعة سفن هذا الأسطول، ولكن بالطبع كانت أكبر سفنه هى السفينة سانتا ماريا التى بلغ طولها ١٠٠ قدم من مقدمتها وحتى مؤخرتها، فهى ليست طويلة، ومع ذلك فلا تقل حمولتها عن مائة طن. وتبلغ حمولة السفينة نينا ٥٥ طنا، وحمولة بنتا ٦٠ طنا. وإذا صنعت عشرة سفن من نوع السفينة سنتا ماريا فى صف واحد فإنها جميعا تصل فى طولها إلى أكبر سفينة من السفن عابرة المحيطات فى أيامنا هذه.

ومع ذلك فقد كان تصميم هذه السفن ممتازا. فقد بنيت بمعرفة نوى الخبرة فى صناعة السفن التى كانت قد تقدمت على مدى عدة أجيال – فكانت هذه السفن تصلح للملاحة، كما كانت تتميز بالسرعة.

وفى نهاية الأمر، وفى الصباح الباكر من يوم ٣ اغسطس عام ١٤٩٢ اعطى أدلانت Adelante، أو القائد كولمبس الأمر إلى السفن الثلاث الصغيرة التى كانت تحمل على ظهرها ٩٤ شخصا، إشارة الأنطلاق من ميناء بالوس (فى اتجاه الغرب) .

وفى اليوم الثالث من الرحلة إنزلقت دفة السفينة بنتا من مكانها الضيق وتحطمت، وأدى ذلك الى أن أصبح من المستحيل استخدام هذه الدفة فى توجيه

السفينة، ولكن الكابتن مارتن الونزو بنزو تمكن من ربطها بطريقة جيدة، بحيث انضمت بنتا إلى بقية السفن.

ومكث كولمبس خمسة أسابيع فى جزر الكنارى، كان جم عمله فى أثنائها إيجاد سفينة أخرى لتحل محل السفينة بنتا، ولكنه لم يتمكن من ذلك، وكل مافعله أنه حصل على دفة لهذه السفينة بدلا من السابقة، وبعدئذ استأنف الرحلة.

وقد خيم السكون على البحارة، عند مرور اسطولهم الصغير بجزيرة فيرو Ferro، الواقعة فى أقصى الغرب من جزر الكنارى، وقام أفراد الأسطول بصلوات كثيرة،، كى يصلوا إلى نهاية العالم عبر بحر الظلمات الكبير.

وعلى سطح مياه هذا المحيط الواسع، إستعان كولمبس بالرياح غير المتغيرة التى تهب بصفة مستمرة من الشمال الشرقى، والتى شاهدها كولمبس فى الأيام الأولى من الإبحار، وبخاصة عندما بعد عن ساحل إفريقيا، وتعرف هذه الرياح اليوم بالرياح التجارية. وهى فى الواقع تساعد على الإبحار الجيد. وفى خلال عشرة أيام قطع أسطول كولمبس ١٢٠٠ ميل.

ولم توجد فى هذه الأيام طريقة لقياس سرعة الأبحار باستثناء مراقبة المياه، وفى هذه الحالة كان يمكن تقدير سرعة السفينة. وكانت المسامات والإتجاهات من المسائل التى لايسمح كولمبس لأى شخص غيره الوقوف عليها، فمن المحتمل ان تصبح هذه المعلومات عن هذا الطريق البحرى، وعن جزر الهند ذات قيمة فيما بعد.

وإلى جانب كل هذا انتاب البحارة إحساس بالرعب، وذلك لعدم ظهور جزر الهند أمامهم. وكان كولمبس قد أخبرهم بأن هذه الجزر ستظهر لهم حتما، وكان يعطى الرجال كل يوم رقما أقل عن طول المسافة الفعلية التى كان يحددها بتخمينه الدقيق وكان يحتفظ لنفسه فى سجل سرى بالمسافه الى كان يعتقد أنها حقيقية،، وأبحر رجال الأسطول لعدة أيام واسابيع عبر السارجاسوSargasso الذى يغطيه العشب البنى اللون. وقد جعل هذا العشب المحيط شبيه بمرج لاحدود له، وكان وهج الليل الفسفورى يتألق حول السفن ويبعث على الرهبة.

وقد رأى البحارة أشياء كثيرة، اعتقدوا انها علامات اليابسة - ورأوا أيضا

تشكيلات السحب التى هى غالبا علامة الأرض.

وفى بداية شهر أكتوبر، وبعد شهر فى المحيط الشاسع كان من الواضح لجميع البحارة انهم سيقطعون اكثر من ٢٤٠٠ ميل حسب تقدير كولمبس، وذلك للوصول لليابان، ولكن فى الواقع كانت المسافه بين اليابان وغرب لشبونة تبلغ ١٠٦٠٠ ميل بحرى.

ولم توجد أى صور لسفن كولمبس، ولكن من المحتمل أن السفينة سانتاماريا تشبه هذه السفينة التى رسمت عام ١٤٩٣م.

والجدير بالذكر أن نسأل ونقول: هل واصل هؤلاء البحارة طريقهم إلى اليابان؟ والإجابة عن ذلك هى: نعم، لأنه فى ذلك الوقت ومابعده سيطر الخوف على كولمبس نفسه، وبخاصة عندما اتجه نحو الغرب، ففى تلك الأثناء كانت أسراب كبيرة من العصافير تمر من فوق السفن وهى تتجه جميعها نحو الجنوب الغربى. وعندئذ قرر كولمبس أن يتبعها، وأعطى الأمر إلى ماسك الدفة كى يغير تجاه الطريق من الغرب الى الجنوب الغربى.

وفى العاشر من شهر أكتوبر، كانت السفن على مسافة مائتى ميل من اليابسة، فلا يزال امامهم يوم أو يزيد. وكان الرجال لايعرفون ذلك ، فدفعهم فضولهم إلى التجمع حول كولمبس وأخبروه أنه لم يعد لديهم طاقة على الاحتمال أكثر من ذلك وطلبوا العودة.

ولايعرف على وجه التحديد ماذا قال كولمبس – وهو على ظهر السفينة "سانتا ماريا" فى تلك اللحظة المتوترة – وبخاصة أنه كان على وشك الإنتهاء من مهمته. وكتب كولمبس فى يومياته يقول : إنه حاول أن يرفع من روح الرجال قدر استطاعته، فذكرهم بالمزايا التى سيحصلون عليها ، وأضاف قائلا : إنهم مهما يشكون من التعب فإن عليه الذهاب الى جزر الهند، وانه سيستمر حتى يجد ذلك الجزء من العالم، وذلك بمساعدة ربه. عندئذ تلاشى التمرد من بين جميع البحارة.

وفى تلك الأثناء، كانت السفن تتجه الى الأمام بسهولة ويسر. وفى اليوم التالى هبت ريح شديدة، دفعت بالسفن إلى الجنوب الغربى.

وفى صباح اليوم الحادى عشر من شهر اكتوبر تأكد الرجال أن اليابسة أصبحت على مقربة، وهناك رأوا علامات طافية على سطح الماء، تمثلت فى فروع شجيرة Shurb بأوراقه وثمار التوت، كما وجدوا لوحاً من الخشب الجاف حفرت عليه نقوش يدوية، وكان أمل كل شخص أن يكون هو الوحيد الذى يحصل على مكافأة الملكة التى تبلغ حوالى ٢٠٠ دولار، والتى تصرف كل سنه مدى الحياة، كما يصرف مبلغ أخر من الملك لكل هؤلاء الأشخاص الفقراء.

وعند غروب الشمس قام كولمبس بعمل شىء غريب فأصدر فجأة أمرا بتغيير خط السير إلى جهة الغرب، فلو كان ذلك مجرد فكرة فإنه سيكون عملاً جيداً، لأنه سيضعه على الطريق المستقيم الذى يوصله إلى مكان قريب من اليابسة.

وفى تلك الأثناء، لم يرغب أى شخص فى الذهاب لينام فى تلك الليلة، بل اصطف الجميع بجوار السفينة سانتا ماريا، فى نفس الوقت الذى كانت تندفع فيه بسرعة إلى الأمام بسبب الرياح الشديدة، وكانت كل الأعين تنظر إلى الأمام من خلال الظلام، وهى فى حالة توتر، وكان الجميع يحاول أن يرى اليابسة حتى أن البعض من البحارة تسلق الصوارى العالية كى يرى (الشاطئ)

وعلى مسافة قليلة للأمام استطاع بحارة السفينة سانتا ماريا أن يروا السفينة نينا مطفأة الانوار، فقد رأوها وهى تتمايل فى الظلام على المياه الهائجة، ورأى بحارة السفينة سانتا ماريا أيضا السفينة بنتا وهى تمخر عباب الماء، وهى على مسافة قليلة فى الأمام من السفينة نينا.

وفى الساعة العاشرة، كان كولمبس يقف فى مؤخرة سفينته سانتاماريا ويعلن أنه رأى شيئا ما على بعد، وكان هذا الشئ يمثل الضوء الخافت المتقطع الذى يشبه الضوء المنبعث من الشمعة، ولكن بعد ذلك تلاشى هذا الضوء.

ومن المحتمل ان الأنفعال جعل كولمبس يتخيل (هذا الضوء) ومما لاشك فيه، أنه لم يكن هناك أرض عند هذا الضوء، لأن السفن لم تزل على مسافة بعيدة.

وفى الساعة الحادية عشر بزغ ضوء القمر من مؤخرة السفينة، وكان القمر فى هذه الليلة متكاملا تقريبا. ففى تلك الأثناء تمكن الرجال من رؤية طريق طويل إلى

الأمام، بحيث استمرت السفن الصغيرة فى اجتيازه أكثر من ثلاث ساعات. ومع ذلك لم يكن هناك شاطئ على مرمى البصر. ولكن فى ١٢ اكتوبر عام ١٤٩٢م، وفى الساعة الثانية صباحا، صاح بحار من فوق مقدمة السفينة بنتا، وهو يدعى بودريجو دى تريانو Bodrigo de teriano قائلا الأرض الأرض Tierra, Tierra.

وبعد دقائق قليلة، استطاع كل واحد أن يميز هذه الأرض من على هذه المسافة عبر الماء، وكان ضوء القمر الأبيض، الذى يغمر الشاطئ يشبه شريطا رقيقا من الفضة، ممتداً على خط الأفق.

وواصلت السفن إبحارها، وكان البحارة لايزالون يهللون بحيث سبق صياحهم سرعة الريح، وكانت الدقة تعوز تلك الأصوات الجشة التى كانت تنطق بذكر الله، وقد حاول البعض من البحارة أن يغنى، ولكنهم لم يتمكنوا، بل انفجروا بالبكاء (ربما بسبب فرحة وصولهم الى جزر الهند، (كما كانوا يعتقدون).

وقد فاز كولبس بمكافأة ملكة أسبانيا التى خصصت لأول رجل يرى الأرض (أمريكا) فكان كولبس قد رأى الضوء الذى يغمر الأرض المجهولة قبل أن ينشد رودريجو دى تريانو أناشيده باربع ساعات، وقد حمل فجر يوم السبت ١٣ أكتوبر لكولبس مفاجأة عمره، فعلى الشاطئ الذى كان يتوقع أن يجد عليه مدنا كبيرة وحضارة عريقة رأى أناسا يجرون من حوله وهم عراه تماما كما ولدتهم امهاتهم. وبمجرد ان وطئت اقدام الأسبان شاطئ جونا هانى Guana Hani أو شاطئ جزيرة جوانا أسماها كولبس سان سلفادور.

وتجمع الهنود الاراواك الذين كانوا يعيشون على الشاطئ حول كولبس وبحارته، ولخوف هؤلاء الهنود من البحارة أقاموا على مسافة بعيدة من الشاطئ. وفى هذا الصدد كتب كرستوفر كولبس فى أول لقاء معهم يقول :"وبما أننا أصبحنا اصدقاء فقد أعطيتهم قبعات حمراء وعقودا أخرى من الخرز الزجاجى ولكن كل هذه الأشياء ليست ذات قيمة، ومع ذلك فإنها ادخلت عليه بهجة كبيرة، وجعلتهم أصدقاء لنا، لأنها كانت أشياء غريبة بالنسبة لهم، لأنهم لم يروها من قبل. وبعد عودتنا من الشاطئ إلى القوارب التى ستقلنا إلى السفن سبحوا من خلفنا وأحضروا إلينا الببغاوات

ولفائف من غزل القطن، ومقدارا ضئيلا من المال الذى يمكلونه، وفى مقابل ذلك منحناهم بعض اللعب.

ولم تكن أجسام هؤلاء الناس سوداء، ولابيضاء، ولكنها بالأحرى كانت تمثل أجسام سكان جزيرة الكنارى، وعندما التقى معهم البحارة لم يروا معهم أسلحة كالبنادق والسيوف، لأنهم لم يعرفوا أى شىء عن هذه الأسلحة. وعندما عرضنا عليهم سيوفا أمسكوها من الشفرة وقطعوا بها أنفسهم. وعند هذا الحد اعتقد كولمبس أنه وصل إلى جزر الهند، ولهذا سمى هؤلاء بالهنود.

وكتب كولمبس، فيما بعد عن هؤلاء الهنود يقول:" لقد خرجوا إلى السفن فى قوارب صغيرة صنعت من سيقان الأشجار، فكان كل قارب منها عبارة عن قطعة واحدة صنعت بدقة، وكان البعض منها صغيرا للغاية، بحيث يتسع الواحد منها لخمسة وأربعين شخصا.

وقد بنيت منازلهم على شكل أكشاك، كان البعض منها كبيرا، فهى تشبه خياما فى معسكر شيدت بلا تنظيم وبلا شوارع.

وبالطبع وجد كولمبس أن أهل هذه الجزر (هيسبانيولا* وغيرها) جبناء للغاية فهم لم يعرفوا أى شئ عن الحرب، وتحدثوا عن الأسبانيين وعن سفنهم الضخمة التى تشبه الطائرة، وعن مزاياهم، وبنادقهم ، وكأنهم هبطوا من السماء. وتحدثوا ايضا عن أعدائهم وهى القبيلة التى تقطن الجزيرة الأخرى، التى كان سكانها فى بعض الأحيان يغيرون عليهم، وينقلونهم بالقوة إلى جزيرتهم ويأكلونهم. ويعرف هؤلاء بالكاريبس

---

* رفعت الأعلام الإسبانية على هيسبانيولا وكوبا، وجزر الكاريبى الأخرى، وعلى الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية، وقد رسم على هذه الأعلام صور للقلاع وللأسود، وتمثل هذه المناطق الإستكشافات التى تمت بمعرفة كولمبس ، والتى أنجزت فيما بعد بمعرفة المستكشفين الأسبان. وقد زركش ساحل أمريكا الشمالية بالأعلام الإنجليزية، بحيث ان مياه هذا الساحل قد تميزت بهذه الأعلام. ويشير البحر الذى اكتشف بمعرفة الإنجليز إلى رحلة جون كابوت الأولى التى وصل أثنائها إلى نيوفولاند فى الفترة مابين ١٤٩٧، ١٤٩٨ م (المؤلف).

Caribs الذين من أسمهم يشتق اسم الكاريبيان Carbbian. وفى بعض الأحيان يسمى سكان هذه الجزيرة بالكانبسCanibs، التى منها اشتقت كلمة الكانيبال Cannibal ومعناه متوحش (أو من آكلى لحوم البشر).

وكتب كولمبس عن الهنود أنفسهم يقول : أنهم سليموا النية ومسالمون واستطرد فى كتابته يقول "استطاع خمسون أسبانياً ان يقهروا جميع هؤلاء الناس.

وفى السنوات التالية، جاء الأسبان إلى جزر الهند الغربية، ليستقروا فيها، فاستعبدوا أعداداً كبيرة من هؤلاء الهنود، بلغت مئات الألوف فكانوا يعملون حتى الموت، كما كان يعذبون أو يقتلون بالجملة.. وفى عام ١٤٩٠م، عاش حوالى ٣٠٠,٠٠٠ شخص من الهنود الأراواك أو التيانوTiano فى هيسبانيولا، وبعد أكثر من خمسين عاما من الحكم الأسبانى، أى فى عام ١٥٤٨ م، كان يوجد هناك فقط ٥٠٠ شخص من هؤلاء الهنود الذين تركوا على ارض الجزيرة.

وبحث كولمبس، لمدة ثلاثة شهور فيما بين جزر أمريكا عن وجود شىء ما يشبه الصين أو اليابان، لكن دون جدوى، كما بحث أيضا وبحماس شديد، بل وبصفة خاصة عن الذهب والتوابل.

وألقى كولمبس القبض على عدد قليل من الهنود، لإفهامهم بمطالبه ثم تركهم بعد ذلك ليصبحوا أدلاءه، فقادوه الى كوبا، وبعد ذلك إلى هيسبانيولا، وهناك وجد كولمبس قطعا صغيرة من الذهب، كما وجد كميات صغيرة أيضا من الذهب فى هيسبانيولا، فظن انه يوجد هناك بكل تأكيد مناجم للذهب.

ولكن أين كانت توجد المدن الكثيرة المحصنة، والتابعة لزعيم الصين العظيم الذى كتب ماركو بولو عن أسواقها الدائمة وعن موانيها المكتظة؟ وهناك سمع كولمبس الهنود يتحدثون عن حاكم قوى يمتلك كثيرا من الذهب. وكان هؤلاء الهنود يسمون هذا الحاكم باسم كامى Kami. وعندئذ عرف كولمبس ان هذه طريقتهم فى النطق بحيث ينطقون كلمة Kami بدلا من كلمة خان Khan. وبعد ذلك غير كولمبس تفكيره، واعتقد بعد كل هذا انه من المرجح ان تكون هذه البلاد هى بلاد الصين.

وهكذا ، فإن كولمبس كان يغير أفكاره فى حلة وترحاله، أى عندما ينتقل من

جزيرة لأخرى، وكان يقنع نفسه آنه وجد الأقطار التى تقع على الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

وفى ذات ليلة، عندما كانت السفينة سانتا ماريا تبحر بعيداً عن ساحل هيسبانيولا، رغب ماسك الدفة أن يغفو بعض الوقت، وأخبر صبى السفينة ان يتولى إدارة الدفة، ولكن هذا الصبى رفض، لأن كل البحارة كانوا نياما، وفجأة صرخ هذا الصبى بسبب ارتطام السفينة بلسان رملى مخيف تحت المياه، فى الوقت الذى كانت فيه السفينة تسير بسرعة، فأدى ذلك إلى تحطيم ألواحها الخشبية. وبكى كولمبس لان السفينة سانتا ماريا قد تحطمت فبقى لديه سفينتان فقط، وعلى متنهما رجال أكثر من حمولتهما ،فقرر كولمبس أن يبنى حصناً على الجزيرة كى يترك فيه عدداً من البحارة، ليستقروا ويبحثوا عن الذهب، وانتقل كولمبس بنفسه إلى السفينة * نينا.

وظل * كولمبس* يبحث عن جزر الهند حتى منتصف شهر يناير، ولما لم يعثر على شىء بجزر الهند، عاد إلى وطنه.

وقد كانت رحلة العودة اكثر خطورة من رحلة الذهاب نحو الغرب، فالإبحار كان جميلا، لأنه كان مصحوبا بريح غربية قوية دفعت السفينة نينا والسفينة بنتا إلى نقطة تقع جنوب الأزورس،. وبعد ذلك، وفى منتصف شهر فبراير، هبت على السفن أعنف العراصف الشتوية التى من المعروف أنها تهب على المحيط الأطلسى.

ولقد عاشت السفينة نينا من دقيقة الي أخرى ولعدة أيام في العواصف البحرية،وقد هزتها هذه العواصف، وجعلتها فى حالة عدم إستقرار، بل تعرضت لخطر الغرق، وضلت السفن عن بعضها.

---

* عندما وصلت سفينة كولمبس الى هيسبانيولا، قام برسم صور للهنود الأمريكيين من وجهة نظره، كى يقدمها للأوربيين فى عام ١٤٩٣م.

* ذكر كولمبس عند عودته من رحلته الأولى فى ٤ مارس عام ١٤٩٣ م، أنه وجد أن ساحل لشبونة البرتغالى يشبه ساحل جزيرة هيسبانيولا.

* وكان كولمبس قد خاطر برسوه على ساحل البرتغال التى كانت معادية لأسبانيا، وسبب ذلك يرجع إلى هروبه من العاصفة التى أحاطت بسفينته (المؤلف)

وكان كولمبس فى حالة رعب، لأن كلا من السفينتين نينا وبنتا كانتا على وشك الغرق وسوف لايسمع العالم أبدا أى شئ عن الأخبار العظيمة التى حققها. وكان هذا اكثر مما استطاع كولمبس أن يتحمله. وفى حالة من اليأس، كتب كولمبس على قطعة من الجلد مسودة تقريره ولفها ووضعها فى أسطوانه بحيث تمنع تسرب المياه اليها.

وبعد ذلك القى بهذه الأسطوانة فى البحر، أملا فى أنه فى حالة غرقه، سوف تندفع هذه الأسطوانه، مع التيار إلى الشاطئ وهناك يمكن العثور عليها من جانب أى شخص آخر. ومن الممكن أيضا أن تختفى إلى الأبد.

ومع ذلك فقد بقيت السفينة الصغيرة القوية نينا، تسير على سطح المياه، وعند جزيرة سانت ماريا، وجدت نينا ملجأ لها، وتعتبر هذه الجزيرة أحد جزر الأزورس التى تتبع البرتغال. وفى هذه الجزيرة هرب كولمبس بشق الأنفس، ومع ذلك فقد سجنه البرتغاليون.

وتمكن كولمبس من الهرب ليقابل عاصفة مزقت أشرعة السفينة نينا، وربما ألقت بها إلى القاع. ولو لم يكن كولمبس بحارا ماهرا، مابقى على قيد الحياة. وفى النهاية رأى كولمبس ساحل البرتغال. وفى يوم مشرق وجد الفرصة سانحة للهروب من البحار الجبلية. وذلك بالقفز من فوق حاجز رملى الى مياه نهر تاجوس Tagus الآمنه وكان هذا النهر بالقرب من لشبونة.

وقد اندفع بحارة السفينة نيناإلى الشاطئ فاندهش الحراس حين تحدثوا اليهم بغير تفكير عن عبورهم للبحر، وعن كشفهم لجزر الهند، ولكى يبرهنوا على ذلك فقد عرضوا أسراهم من سكان جزر الهند. وانتشرت فى الحال أخبار الكشف على طول الشاطئ.

ولم يعرف كولمبس على وجه التحديد ماذا سيحدث له عندما يسير على التراب البرتغالى. فسوف يحاول الملك جون ايقافه واخفاءه بعيدا فى سجن مظلم، وبذلك يحرم أسبانيا من ثمار هذا الكشف. فإذا اراد الملك جون ان يفعل اى شئ من هذا القبيل، فإن ذلك قد جاء متأخرا، فقد انتشرت الأخبار عن هذه الرحلة، وابتلع كولمبس أى مرارة شعر بها نحو هذا الرجل (الملك جون) الذى كان قد رفض خطة كولمبس من قبل،

ولكن حدث العكس فقد عامل الملك جون كولمبس معاملة طيبة، بل عرض عليه أن يصلح . له السفينة نينا التى كانت فى حاجة الى اصلاح، ثم ترك الملك جون البطل العائد "كولمبس ليواصل طريقه.

وبعد عدة أيام القت السفينة نينا بمراسيها فى ميناء بالوس، وكانت تحمل على متنها الهدايا من الببغاوات والهنود، وأرسل كل هذا إلى أصحاب السمو الملكى الملك فرديناند والملكة ايزابيلا ملكا أسبانيا. وقد استغرقت هذه الرحلة الكشفية ٢٢ يوما، وتعد أعظم رحلة على مر العصور. وهكذا وفى نهاية مغامرة تعرض فيها كولمبس.... لأخطار متتالية، علم العالم المتحضر بأخبار أرض جديدة غريبة تلك الأرض التى سميت فيها بعد بأمريكا، التى تقع على الجانب الآخر من بحر الظلمات.

العالم الجديد

ذهب كولمبس الى امريكا اكثر من ثلاث مرات من أجل البحث عن الصين، التى لم تكن سرا غامضا يقلق كولمبس ويملؤه بالحزن، ولكن الأرض التى كان قد اكتشفها قد بهرته. وكانت هذه الأرض تعرف بأرض "الألف تعويذه". فقد بهره جمالها الذى ظهر أمام أعينه.

وكان كولمبس قد ذهب الى كوبا ، وبورتوريكو وجاميكا وجنوب أمريكا. وبعد ذلك ذهب صوب جنوب ساحل أمريكا الوسطى، فوصل الى بنما. وفى هذه المناطق وجد نفس القصة، بدلا من أن يجد المدن، وجد البرارى الشاسعة، وبدلا من ان يجد القصور المطلية جدرانها بالذهب، وجد الأكواخ المبنية من العشب والخيام المشيدة من خوص النخيل، وبدلا من أن يجد أمراء التجار يرتدون الملابس الحريرية، وجد هنودا لايرتدون سوى قمصان على ظهورهم.

وقد أقتنع كولمبس أحيانا بحقيقة، أن هذه الأرض ليست هى الصين، ولا اليابان، ولاجزر التوابل، ولكنها عبارة عن جزء من العالم الذى لم يسمع الجغرافيون المتعلمون فى أوربا عنه شيئا من قبل. فكانت هذه الأرض عبارة عن عالم آخر هذا ماأطلقه عليها كولمبس، ومع ذلك أصر حتى مماته على أنه قد وصل إلى آسيا.

وقبل أن يغادر كولمبس أسبانيا بأيام قليلة، للقيام برحلة الى أمريكا الجنوبية، حدث شئ مثير فى الجانب الأخر من العالم، تمثل هذا الشئ المثير فى إبحار الملاح البرتغالى فاسكو داجاما إلى ميناء قاليقوط فى الهند، فقد أبحر داجاما إلى الشرق عبر المحيط الهندى ويعتبر فاسكو داجاما أول أوربى وصل إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى جنوب أفريقيا.

ولم يعتقد البرتغاليون بأن كولمبس قد وصل إلى جزر الهند، ولكن كان جل أهتمامهم معرفة المكان الذى وصل اليه على وجه الدقة. ورغبوا أيضا فى أن يروا بأنفسهم اكتشافه. وقد حاول كل من الملك وملكة اسبانيا الابتعاد عن منافسة البرتغال وأستغاثا ببابا روما فى مساعدتهم فى الحصول على حقهم المطلق فى هذا الطريق

البحرى الجديد.

وجاءت تسوية البابا * لهذه المسألة بتحديد نقطة تقع الى الغرب من جزر الرأس الأخضر بحوالى ١٥٠٠ ميل، وعند هذه النقطة تم رسم خط من الشمال الى الجنوب، شريطة أن تمتلك أسبانيا كل شئ غرب هذا الخط، بينما تمتلك البرتغال كل شئ شرقه.

وقد إعطى هذا التقسيم الجديد نتوء البرازيل، وجزءا من أمريكا الشمالية الى البرتغال، وذلك لأن راسم الخريطة قد وضعها خطأ شرق هذا الخط. وأما بقية الأجزاء الأخرى من امريكا فكانت تخص أسبانيا.

وبعد سنوات قليلة دخلت انجلترا وفرنسا السباق بجدية من أجل الحصول على أراض جديدة، وكانتا قد تحديتا بحق أى شخص أو جماعة تقوم بتقسيم هذه الأرض. ولما كان التقسيم البرتغالى الأسبانى القديم قد تم لإبعاد فرنسا عن الأراضى الجديدة، قال الملك الفرنسى فرانسس الأول: ينبغى أن أرى وصية أدم وأعرف كيف قسم الأرض.

وإذا لم يكن العالم الجديد هو جزر الهند، فماذا يكون؟ كان هذا هو السؤال الذى وجه لكولبس المكتشف العظيم الذى مات دون أن يسمع إجابة عن هذا السؤال. وكان من الممكن جدا ان يصل كولبس الى هذه الإجابة، فكان اعتقاده ينحصر فى ان الأرض التى اكتشفها تقع فى مكان ما بالقرب من جزر الهند. ومن المحتمل أن تكون هذه الأرض فى المكان المطلوب البحث عنه، فهى تقف عقبة فى طريق السفن التى تحاول الأبحار الى الصين. ومن المرجح أنه توجد قناة فى مكان ما أو يوجد بوغاز يمكن للسفن ان تمر من خلاله الى "جزر الهند."

وكان الغرض من رحلة كولبس الأخيرة أن يجد بوغازا كهذا. وكان هذا هو الهدف المحدد لعدد من الرجال الدين تابعوا خط سيره بعد ذلك إلى أمريكا لعدة قرون.

---

* فى مايو عام ١٤٩٣م، حدد البابا اسكندر السادس الأراضى المجهولة فى العالم، وقسمها بين الملك جون ملك البرتغال، والملك فرديناند، الملكة إيزابيلا ملكا أسبانيا. وقد وقع الجميع على هذه المعاهدة . معاهدة توردسلاس . وفى النهاية حدد موقع الخط الذى يقسم نصيب الدولتين (المؤلف).

وقبل أن يبدأ كولمبس ذلك البحث، قام بعمل بطولى تمثل فى عبور المحيط وكان هذا العمل كافيا فى حد ذاته فى تحريك طموحات الأشخاص الآخرين، ففى ذلك الوقت تمنى كثير من البحارة، بل حاول كل واحد منهم ان يكون الأول فى الوصول الى كاثى، وذلك عن طريق الإبحار تجاه الغرب، وعبر الطريق البحرى. وبعد خمس سنوات من الرحلة الأولى شكا كولمبس بأنه لايوجد شخص حتى الخياط الا وطلب السماح له بأن يصبح مكتشفا.

وفى الواقع كان البعض من هؤلاء البحارة الذين قاموا بهذه الرحلة من الملاحين العظام، فكان جيوفانى كابوت واحدا من أعظم هؤلاء البحارة. وكان كابوت هذا قد ولد فى وطن كولمبس- بمدينة جنوا بإيطاليا- وبعد ذلك ذهب الى انجلترا وقام برحلة تحت العلم البريطانى، وأصبح يعرف فى ذلك الوقت بجون كابوت.

ولم يكن جون كابوت هذا مقلداً لكولمبس بالرة [illegible] ته الخاصة بعبور المحيط الأطلسى قبل رحلة كولمبس الأولى بمدة طويلة. ولما كان كابوت يعمل تاجرا للتوابل فى المدينة العربية مكة، كان يتشوق لمعرفة مصدر هذه التوابل. وعندما سأل التجار عن ذلك، وجدهم لايعرفون، ولكنهم قالوا له: إن القوافل التى تجلب هذه السلع تقطع طريقا طويلا، وهذه القوافل تحصل عليها بالتالى من قوافل أخرى تأتى بدورها من طريق أطول للغاية.

وكانت هذه القوافل تسافر فى اتجاه الغرب والجنوب، لذلك فكر جون كابوت فى السفر حول العالم، كى يصل الى المكان الذى تأتى منه التوابل، (فمن المحتمل أن يكون هذا الطريق أقصر الطرق). وكان كابوت يرغب فى الإبحار لجهة الغرب والشمال. وكانت هذه الفكرة محببة اليه، لذلك رغب كثيرا فى تحقيقها.

وعلى سطح الماء المواجه لمدينة بريستول بانجلترا، قابل الرجال الذين عرفوا الكثير عن المحيط الأطلنطى الشمالى- البحارة الذين كانوا يقومون برحلات تجارية الى أيسلندا - وكان كابوت قد سافر الى بريستول فوصلها عام ١٤٩٥م. وهناك تناقش مع

البحارة، ومع الأشخاص، الذين يقومون بشحن السفن عن كيفية القيام برحلة عبر المحيط الأطلنطى، وفى الوقت كانت الأخبار قد وصلت الى انجلترا عن نجاح كولمبس فى الوصول الى جزر الهند.

وفى لندن كان حديث كثير فى بلاط الملك هنرى السابع، وفى مكاتب الشحن والمحاسبة (عن الأراضى التى تقع فيما وراء المحيط الغربى).

وبعد سنتين من مجئ كابوت الى لندن، ومعه اقتراحه الخاص بمحاولة الوصول إلى جزر الهند، وافق الملك هنرى السابع على وجه السرعة على تنفيذ هذا المشروع.

وكان هذا امرا سهلا ، لأن كابوت لم يطلب أموالا، وقد وافق ايضا بحارة بريستول من قبل على إعطائه كل ماهو فى حاجة اليه.

وحصل كابوت على سفينة واحدة، تعرف باسم السفينة ماثيوMathew والتى كان على ظهرها ثمانية عشر رجلا، وفى ٢ مايو ١٤٩٧ م أبحر من ميناء بريستول، وبعد ثمانية أسابيع تقريبا أى فى ٢٤ يونيو من العام نفسه رأى الأرض (أمريكا).

وإنه لمن المحتمل أن يكون هذا هو ساحل اللبرادور، والأكثر احتمالا ان هذه المنطقة التى وصل اليها جون كابوت هى منطقة نيوفوند لاند أو نوفاسكوتيا NewFound Land or Nova Scotis التى طالب الإنجليز بملكيتها، لأنهم اعتبروها (نيوفوند لاند) الارض الجديدة، حتى اذا كان كابوت قد كتب عنها اى وصف فإنه قد فقد، حيث لايوجد اليوم أى سجل لكابوت نفسه عن أى مرحلة لهذه الرحلة.

وفى العام التالى أبحر جون كابوت مرة ثانية، وكان بصحبته خمس أو ست سفن، وأخذ معه ابنه سبستيان ، ولكن هذه المرة لم يعد كابوت، ومن ناحية أخرى، فإنه لم يكن هناك سجل لقيد حوادث السفن وسرعة سيرها، ولا أى سجل مكتوب، ولكن فى عام ١٩٣٩م، أى بعد ٥٠٠ سنه تقريبا، وجدت وثيقة جاء فيها أن جون كابوت كان قد غرق بسفينته، إذن كيف حدث هذا؟ مع أن هذا لايزال سرا مجهولا.

وقد عاد الإبن الذى تحدث كثيرا عن نفسه، بل أخذ لنفسه السمعة والمجد اللذين اكتسبهما والده عن رحلته الأولى، ولم يكن البحث حتى ذلك التاريخ يتم بمعرفة الخبراء، فبعد مدة طويلة على وفاة جون كابوت عرفت الحقيقة عن كشفه الأرض

(أمريكا الشمالية)، لهذا تحول التكريم الذى كان سيلحق بابنه سبستيان إلى جون كابوت نفسه. ومع ذلك فقد حاول سبستيان أن يجعل العالم ينس والده.

وفى الوقت الذى كان فيه جون كابوت يستكشف نيوفوندلاند، كانت اسبانيا تواصل كشفها لشواطئ الكاريبى، ففى منطقة واحدة وعلى طول شاطئ فنزويلا كان البحر يقذف كثيرا من المحار الذى يستخرج منه كثيرا من اللؤلؤ. وأما عن السكان فكانوا يعيشون فى أكواخ بنيت فوق سطح الماء، وحملت على أعمدة خشبية. وفنزويلا كلمة اسبانية تعنى البندقية الصغيرة. وفى داخل هذه الأكواخ غير المتقنة يوجد اللؤلؤ الذى جمع منذ عدة أجيال مضت، كما وجدت مخازن ضخمة للمجوهرات التى كان لها قيمة عالية فى أوربا فى ذلك الوقت.

وكان كولمبس قد سمع عن صيد اللؤلؤ من مرشديه الهنود. وقد تنبه الأسبانيون- عن طريق تناقل الأخبار وعن طريق البعثات الأخرى التى أكدت أخبار الهنود – الى حقيقة وجود اللؤلؤ. وقد عاد الأسبانيون ومعهم سلالهم المملوءة باللؤلؤ الذى كانوا يحصلون عليه بسهولة ويسر. كما أخذوا معهم ايضا العبيد. وذلك بشحنهم فى السفن، وفى كل الحالات أصبحت أسبانيا من الدول الغنية لسنوات عديدة.

وكان الونزو أجيدا هو أول من قام بالبحث عن اللؤلؤ، وكان هذا الرجل قد خدم مرة مع كولمبس كضابط فى إحدى سفنه. فكان قد استخدم خريطة كولمبس لإرشاده. وكان أجيدا قد شرع فى الإبحار من اسبانيا عام ١٤٩٩م، فوصل فنزويلا وعاد بعد عام. ولكن الشئ المتع لنا فى ذلك الوقت، بل الأكثر إثارة من الرحلة نفسها هو أمريجو فيسبوتشى الذى اصطحب معه أجيدا فى هذه الرحلة. فإذا كانت الأسماء هامة. فمن الأرجح للأمريكان أن يتمسكوا ولمدة طويلة على أن إسم بلدهم ينبغى أن يتغير من الولايات المتحدة الأمريكية الى الولايات المتحدة الكولومبية، ولكن الأسماء ليست ذات أهمية، فهم قبلوا حادثة عرضية فى التاريخ منعت هذا الشرف عن كرستوفر كولمبس. الذى يستحق بلا شك هذا التكريم وأعطوه الى امريجو فيسبوتشى الذى لم يفعل شيئا يذكر.

وقد ولد أمريجو فيسبوتشى فى فلورنسا بايطاليا فى نفس العام الذى ولد فيه

كولمبس فى جنوا عام ١٤٥١م، وكان إسمه فى البداية أمريجو، فهو يأخذ الشكل الايطالى من الإسم الألمانى أمريشى ، الذى يعنى "الغنى بالقمح" " Rich in wheat" وقد كبر أمريجو ليصبح رجل أعمال ورجل مال حيث كان يعمل فى بيت فلورتين ميديتشى. وفى نفس الوقت كان ممونا للسفن فى فرع ميديتشى فى أسبانيا، وكان على مقربة من الرجال الذين أبحروا بعيدا ليكتشفوا أجزاء مجهولة. وكان الحماس للعالم الجديد قد انتشر على طول الجبهة الساحلية، وقد اصاب هذا الحماس فيسبوتشى الذى كان مدرسا لعلم الفلك والجغرافية والملاحة والذى أصبح بذلك شخصا ممتازا فى كل هذه العلوم الثلاثة، وبعد ذلك إتجه الى البحر.

ولم يعرف أحد متى ذهب أمريجو ورأى العالم الجديد. مع العلم بأن الأرض سميت باسمه، ومع العلم أيضا بأن اناسا كثيرين كانوا ضد هذه التسمية. لأن مسألة ذهاب أمريجو ومجيئه، قد دار حولها نقاش استمر أكثر من أربعة قرون.

وكانت البراهين الوحيدة هى خطابات فيسبوتشى التى إدعى فيها انه كشف قارة من المحتمل ألا تقل فى الأهمية عن أمريكا الشمالية. ولم يكن هناك أى سجل عن الرحلة الأولى التى ادعى القيام بها عام ١٤٩٧م- أى قبل إبحار كابوت من ميناء بريستول.

وقد أجمع كثير من الناس على أن فيسبوتشى لم يكن فى إمكانه القيام برحلة فى الوقت الذى قال فيه :إنه قام بها.

وبعد ذلك حدث نقاش حاد ضد الذين لايصدقون فيسبوتشى الذى أشار فى خطاباته المشهورة عن خط ساحلى،. من المحتمل ان يضم فلوريدا والمقاطعة التى تقع إلى الشمال منها. ووصف الأرض والهنود والحيوانات والطيور والنباتات والمناخ. وقد كتب كل هذا عن هذه المناطق الى لم يزرها مستكشف آخر من بعده بل إن الشاطئ لم ير أحد غيره.

وسواء اكتشف فيسبوتشى أمريكا الشماليه أم لم يكتشفها، فإنه بدون شك قام برحلة إلى البرازيل التى اكتشفت عندما ارسل ملك البرتغال فاسكو داجاما، ليدور من حول افريقيا، ثم يتجه بعد ذلك شرقا الى الهند، وكان من هدفه ان يشيد مركزا للتجارة

فى الشرق. ومن أجل ذلك الغرض ارسل عام ١٥٠٠م، اسطولا ضخما مكونا من ١٣ سفينة، ومن ١٢٠٠ رجل كانوا جميعا تحت قيادة بدرو الفاريز دى كابرا Pedro Alvarez de Cabra.

ولبعض الأسباب غير المعروفه، فإن بدرو الفاريزدى كابرا Pedro Alvarez de Cabra بعد أن أبحر مئات قليلة من الأميال على الطريق الإفريقى انحرف فى اتجاه آخر. فبدلا من الدوران حول رأس الرجاء الصالح الأفريقى، نجده يتقدم نحو الشرق، ثم يتجه نحو الغرب، وبعد شهر وصل الى البرازيل فى أمريكا الجنوبية.

ومن المحتمل ان يكون قد أخطأ، ولكن يبدو أن هذا كان من غير المتوقع وكان قليل من البحارة فى ذلك الوقت قد حققوا أعمالاً أفضل من البرتغاليين. ومن المرجح أن يكون بالطبع قد اندفع بواسطة عاصفة أو ربما أن يكون كابرا قد تصرف بناء على أوامر سرية. وعلى أيه حال فإنه عندما رأى أرضا طالب على الفور بأن تصبح ملكا للبرتغال، وبخاصة لأنها كانت تقع الى الشرق من الخط الذى رسمه البابا. ولم يكن هناك محل للجدل فى هذا المطلب.

وقد تمثلت هذه الأرض فى نتؤ البرازيل، التى اكتشفها كابرا، عندئذ اصبحت ملكا للبرتغال، واستمرت تحت سيطرتها حتى حصلت على استقلالها بعد ثلاثة قرون من الزمن.

وبعد عام من زيارة كابرا العرضية للبرازيل كان فيسبوتشى فى ذلك الوقت يعمل لحساب ملك البرتغال، ومن هناك ابحر بإسطول مكون من ثلاث سفن برتغالية صغيرة، ومع ذلك كانت هذه الرحلة على جانب من الأهمية.

ومن البرازيل إتجهت هذه السفن على طول الساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية لمئات كثيرة من الأميال. وفى أحوال كثيرة كانت السفن تتوقف لكى يتمكن البحارة من استكشاف الشاطئ.

وفى اليوم الأول من العام الجديد، وصل أفراد البعثة الى منطقة اعتقدوا إنها مصب نهر كبير، وأسموه نهر يناير، وذلك بسبب تاريخ كشفه، لأنه كشف فى أول يوم

من السنه الميلادية.

وثبت فى النهاية انه خليج. حتى ان المدينة التى شيدت فى هذا المكان سميت باسمه، أى باسم مدينه ريو دى جانيرو.

وبعد ذلك أبحرت البعثة من ريو دى جانيرو، ربما لآلاف الأميال صوب الجنوب، حتى وصلت الى مايسمى فى ايامنا هذه بالأرجنتين.

وعندما عاد أمريجو فيسبوتشى* إلى لشبونه عام ١٥٠٢م، أخبر الملك ومستشاريه عن الشواطئ الشاسعة الى كان قد رآها، وتساءل فيسبوتشى بالقول عما اذا كانت البوابه الجنوبية لتجارة الشرق يمكن الوصول اليها عن طريق هذه القارة التى اكتشفت حديثا والتى تطل على جنوب الأطلسى.

واعتقد البرتغاليون فى أن هذا سيكون له أثر طيب. لذلك ارسلوا أمريجو فيسبوتشى بعد عودته فى العام التالى ليرى اذا كان فى إمكانه ايجاد طريق فيما وراء أمريكا الجنوبية، يصل الى ملقا الميناء البحرى العظيم، الذى يقع فيه شبه الجزيرة الذهبية (جزيرة الملايو). وكان هذا هدف رحلته الرابعة، لكن لسوء حظه ولسوء إدارته انتهت المغامرة بالفشل بعد ان وصل الى الساحل البرازيلى.

وكان قد فقد أربع سفن من السفن الست بسبب هبوب عاصفة بحرية. وبعد شهور من بحثه عن فرص الإختراق او الإلتفاف حول البرازيل - وهى أكبر مساحة من الولايات المتحدة الامريكية - تخلى فيسبوتشى عن بحثه عن أقصر الطرق التى توصل الى ملقا فعاد الى وطنه. وكان من الأفضل ان يقوم بذلك لأن ملقا كانت على خط مستقيم يبلغ مداه ١٤٠٠ ميل.

وقد نشرت خطابات امريجو فيسبوتشى فى باريس وفلورنسا. وفى أماكن أخرى كثيرة. وكان جميع الأوربيين فى حاجة ماسة لأخبار الأراضى المجهولة، والتى تقع عبر المحيط الأطلسى. وقد قرأت هذه الخطابات بحماسة شديدة، حتى أنه فى عام ١٥٠٧م، ضمت هذه الخطابات فى كتاب صغير يبلغ عدد صفحاته ٥٢ صفحة

---

* ولد فيسبوتشى مكتشف أمريكا فى فلورنسا بايطاليا عام ١٤٥١م (المؤلف)

وكـان هذا الكتـيب معنـون ب Cosmo Grapliae Introductio، وقـد نشـر باللغة اللاتينية، وقدد كتب هذا الكتاب بمعرفة مارتن وولد سميولر الذى كتب عن جغرافية ثلاثة قارات من العالم: أوربا وآسيـا وأفريقيـا ثم قال :"...فى ذلك الوقـت اكتشــــف فيسبوتشى * القسم الرابع من العالم، لذلك فأنا لاأجد سببا فى عدم تسميته أمريجى أو أمريكا، وذلك باسم مكتشفها أمريكوس.

وهكذا فقد حملت هاتان القارتان هذا الإسم (امريكا) وشوهدت امريكا مطبوعة لأول مرة فى التاريخ.

* كان الأسبانيون المرافقون لفيسبوتشى مسلحين بالبنادق لذلك تغلبوا بسهولة على هنود البرازيل (المؤلف)

العبـور عبـر حـائط الأرض

تقع على شاطئ خليج دريان Darien قارة أمريكا الجنوبية، أى عند مجرى قناه بنما (الحالى)، فقد قاد كريستوفر كولمبس الهنود* إلى قمة جبل استطاع من فوقه أن يرى من هذا القطر مساحة أميال، وليس ببعيد أيضا أن يكون قد رأى زرقة المحيط الواسع والواقع جهة الغرب على مسافة مئات قليلة من الأميال.

وفى عام ١٥٠٢م. أكمل كولمبس رحلته الرابعة والأخيرة إلى العالم الجديد. وقد أخبره الهنودبأن الذهب يوجد فى كل أنحاء القطر، أى فى كل أنحاء بلادهم وأروه أيضا البريق الأصفر الذى يخرج من رمال قاع البحر، كما نقبوا عن الحبات الصفراء التى توجد بين جذور الشجرة، وساروا بالطريق البرى طوال تسعة أيام نحو الجنوب، وقالوا : إنه يوجد هناك مملكة كبيرة أغنى من مملكتهم.

وعندما رغب كولمبس فى أن يعسكر ويستكشف الأرض منعه الهنود لأنهم كانوا رجالا أقوياء ومسلحين بسهام مسمومة وأقواس قوية. ومع ذلك قرر كولمبس المخاطرة بالاستمرار فى الكشف. وكان من نتيجة ذلك ان خاض حربا دموية استمرت ثلاثة شهور وأدت الى مقتل كثير من الأسبانيين.

وفى النهاية تعرض كولمبس للتعب والمرض والقلق بسبب تمرد رجاله عليه، ومن السوس الذى دب فى سفنه، وأخيرا القى نظرة حزن على الأرض التى اعتقد انها البوابة إلى الصين والتى طال البحث عنها، وأبحر عائدا تاركا المكان، وعند عودته إلى اسبانيا ابلغ عن القصص الهندية. ومات كولمبس بعد سنتين من عودته.

وبعد سنوات قليلة من موته نظمت مجموعة من المستوطنين القاطنين فى جزيرة هيسبانيولا حملة للذهاب الى ذلك القطر، ليروا ماإذا كانت قصص الذهب حقيقية أم لا.

---

* لقد عبر الهنود بمرارة، وبعداوة لأجيدا، الذى ترك رجاله تحت قيادة فرانسسكو بيزارو عام ١٥٠٩م، وأبحر الى هيسبانيولا آملا فى الحصول على مساعدة لمستعمرته المتهالكة (المؤلف).

وقاد الونزو دى أوجيدا هذه المجموعة إلى كولمبيا، وهناك حاولوا الإستقرار على الشاطئ. ولكن الظروف كانت صعبة. فدفعهم ذلك الى إرسال رسالة الى هيسبانيولا تفيد أنهم فى حالة مجاعة.

وفى عام ١٥١٠م، أعد مارتن فرنانديز دى انكيزو سفينتين وأبحر الى مستعمرة أوجيدا فى كولمبيا. وعلى ظهر السفينة بربارا barbara إختبأ مزارع من هيسبانيولا يبلغ من العمر ٣٥ عاما حتى لايدفع أجرة السفر ، وكان هذا المزارع يدعى فاسكو نانيز دى بلباو Vasco Nanez de Balboa.

وقد أتى فاسكو نانيز دى بلباو الى العالم الجديد، مثل الكثير من جيرانه متوقعا وجود الذهب، ثم يعود بعد ذلك الى وطنه رجلا ثريا. ولكن هناك من سبقوه واستولوا على معظم الذهب فاضطر بلباو ان يعمل بالزراعة، التى لم تدر عليه شيئا يذكر، حتى إنه لم يستطع دفع ديونه، لذلك هرب من السجن وأختبأ على متن السفينة بربارا.

وبعد أن سارت السفينة أيام قلائل خرج بلباو من المخبأ. وفى البداية هدده إنكيزو قائد السفينة بتركه فى جزيرة مهجورة، ولكن صفح عنه فى النهاية. وواصلت السفينة سيرها الى كولمبيا حيث توجد مستعمرة أوجيدا. وهناك أخذت السفينة على ظهرهاجماعة أوجيدا لأن اتباع اوجيدا (البائسين قرروا التخلى عن كولمبيا). وبعد ذلك أبحر إنكيزو الى دريان الواقعة على برزخ بنما كى يبحثوا عن الذهب. وبدأ بلباو فى التخطيط ليتخلص من إنكيزو ، ولم يمض وقت الا ونجح، اذ وضع انكيزو على ظهر السفينة بالقوة وأرسل الى الوطن. وبعد ذلك تلى بلباو قيادة البعثة.

وفى البداية، لم يرحب الهنود كثيرا بهؤلاء الجدد الذين لايزيدون عن كونهم من الرجال البيض الذين زاروهم فى وقت سابق. وعرف بلباو كيف يتحدث اليهم، فسمحوا له أن يشيد مدينته، و بعد ذلك عملوا معه فى الحقول والمناجم (مناجم الذهب). وفى الوقت نفسه، أصبح بلباو الحاكم والقائد العام لدريان.

وعرف بلباو من هؤلاء المواطنين الكثير عن القطر الذى يجاور وطنهم ففى يوم ما تجمع ضباطه فى منزله كى يقسموا الذهب الذى جمعوه من الهنود. وبينما هم

يقومون بوزنه حدث نقاش حاد.

ولم يستطع الهنود ان يفهموا هذا الجنون على الذهب، وقد تقدم رئيس هندى شاب وضرب الموازين وهو فى حالة من الإشمئزار، وبعثر الذهب على الارض وقال:"إذا كان ذلك ماتبغونه، فأستطيع ان أخبركم عن أرض يأكل ويشرب سكانها فى أطباق ذهبية، فالذهب عندهم وفير، شأنه فى ذلك شأن الحديد الذى يوجد لديكم. وقد تنبه فرانسسكو بيزارو بصفة خاصة الى حديث هذا الهندى.

وأضاف الهندى يقول أيضا :إن هذا القطر يقع نحو الجنوب، ويمكن الوصول اليه بعبور الأرض عند مكان ضيق. وبعد ذلك يمكن السير على شاطئ البحر الجنوبى (البحر الكبير) المحيط الأزرق.

وبينما كان هذا الرجل يتحدث، كان بلباو فى حالة أهتمام وانفعال كبيرين بالمكان الضيق والبحر الكبير، وفى النهاية يمر هذا الطريق عبر هذا الحائط الشاسع المحير، ومن يدرى ماذا سيكون هناك خلفه، فربما تكون الصين.

واندفع بلباو نحو المدينة ليعد بعثته، فجند حوالى ١٩٠ أسبانيا، وبعد أيام قليلة، أنطلق من دريان الى الأمام ومعه مئات الهنود الذين يعملون كحمالين ومرشدين.

وتقدمت البعثة على طول الشاطئ لبرزخ بنما، حتى وصل الى نقطة تبعد مسافة أميال قليلة فقط من موقع القنال التى نعبرها اليوم. وقال الهنود: إن مسافة السير الى المدينة تستغرق سته أيام، بعدها يمكن الوصول الى البحر، ولكن لم يذكروا المسافة الواقعة بين الجبلين الكبيرين، واللذين يمكن تسلقهما، كما لم يذكروا لهم ايضا ماتحويه هذه الأودية الرطبة والمستنقعات المليئة بالحمى والأدغال، علاوة على مقاومة الوطنيين للبعثة حيث كانوا ينزلون من فوق التلال ويصوبون سهامهم المسمومة الى أفراد البعثة، فضلا عن خطر الحيات السامة، بالاضافة الى الكثير من الحشرات اللادغة.

وكافح بلباو ورجاله وهم يسيرون فى طريقهم صوب الجنوب عبر لسان من الأرض. وقد امتدت السته أيام الى ثلاثة أسابيع، وأصبحت كل معاناتهم لاتحتمل.

وكان عدوهم اللدود يتمثل فى الحمى الصفراء، والرعب الذى انتابهم فى الغالب من جانب جيوش النمل حيث لم يكن لديهم أسلحة يستطيعون بها الفتك بهذه الحشود.

فكان عندما يتعرض بحار لمرض الحمى فإنه يتحول الى مجنون، ويبدأ فى مهاجمة رفاقه.

ومن أجل حمايتهم من خطر البحار المريض بالحمى الصفراء كانوا يقومون بربط أيديه وأرجله ويتركونه وراءهم ليموت. وعندما كانوا فى بعض الأحيان يعودون من حيث أتوا، كانوا يرون ماذا ترك النمل من أقرانهم سئ الحظ هياكل نظيفة. لذلك قرر أعضاء البعثة أنه من الافضل قتل أى شخص يسقط على الأرض بسبب المرض، لأن هذا فيه شفقه عليه.

وفى صباح يوم ٢٥ سبتمر عام ١٥١٣م، كان لايزال يوجد على قيد الحياة ٦٩ أسبانيا فقط. وطلب بلباو التوقف عند أسفل التل وتسلق ببطء حتى بزغ أفق جديد، ليلقى ببصره على الزرقة المتماسكة للمحيط الهادى او البحر الجنوبى العظيم، كما كانوا يطلقون عليه.

وبعد أربعة أيام تقدم بلباو نحو الشاطئ وسار مسافة فى داخل أمواج المحيط الهادى التى تنكسر على الصخور. وظل بلباو يخوض بدرعه فى وسط المياه حتى وصل الماء الى صدره. وهناك أعلن للريح والأمواج إنها ستتحول ملكيتها الى ملك أسبانيا، أى سيأخذ البحر كله والأراضى التى تحيط به.

ومع ذلك فلم يكن ملك أسبانيا قانعا بكل هذا الذى كان قد توقعه.

وكان مارتن إنكيزو قد ذهب الى أسبانيا، وكتب تقريرا عن معاملة بلباو له، وقدم هذا التقرير الى الملك.

وقد رويت قصة الهندى الثائر فى البلاط الأسبانى الخاصة بالمملكة الذهبية، الواقعة فى جنوب دريان، لذا قررت اسبانيا الزحف على هذه المملكة. فقد اعد إسطولا خصص لهذا الغرض، وكان على ظهر سفنه ١٥٠٠ الف وخمسمائة مغامر أسبانى، كانوا قد توجهوا الى دريان. وكان إنكيزو ضمن هذه البعثة التى قادها بدراریاس دافيلاPedrarias Davila . وفى بعض الأحيان يكتب هذا الإسم على النحو التالى بدرو أرياس دافيلا، الفاتح القوى الذى كان الملك قد عينه بدلا من بلباو، حاكما على المستعمرة الجديدة. وكان دافيلا قد عامل الهنود بوحشية فكانوا يموتون بالآلاف.

وكتب بلباو خطابا الى ملك اسبانيا يتوسل فيه أن يضع حدا لهذه القسوة التى يعامل بها دافيلا الهنود.

ولم يقطع بلباو الأمل فى الوصول إلى الامبراطورية الذهبية التى توجد بعيدا نحو الجنوب. وكان فى الإمكان قطع المسافة الى البحر بكل أمن وسهوله.

ففى الوقت الذى كان يعد فيه ببناء سفينتين، وصل على وجة السرعة رسول من طرف دافيلا ومعه رسالة.

وكانت لهجه هذه الرسالة تتسم بالود، وكان الحاكم الذى يقطن مدينة أكلا Acla الجديدة التى تبعد أميالا قليلة من دريان، فى حاجة الى نصح بلباو بصفة خاصة فى المسائل التجارية. وكان السؤال الذى يطرح نفسه هو : هل سيأتى بلباو على الفور الى أكلا للتشاور أو يأتى بشئ آخر غير ذلك؟

وقد فعل بلباو ماطلب منه، فعند قدومه الى المدينه قابلته على الطريق مجموعة من الجنود التى قامت باعتقاله، وكانت دهشته أنه رأى على رأس هذه المجموعة العسكرية مصدر ثقته ألا وهو الضابط فرانسسكو بيزارو. سأل لبلباو لماذا يعامله بهذه الطريقة؟ فابتسم بيزارو، وقاده الى السجن.

واستغرقت محاكمة بلباو يوما واحدا، بعده أجبره الحاكم وهو دافيلا المحكمة بأن تحكم عليه بالإعدام، وقبل غروب شمس يوم من أيام خريف عام ١٥١٧م، وفى ميدان مدينة أكلا العام قطعت رأس بلباو.

البحـــر الواســـع الآمـــن

اعتقدت كل أوربا بأن الأمة التى تستطيع أن تحقق السيطرة على طرق بحرية جديدة إلى الشرق، فإنه من المحتمل ان تصبح أغنى أمه على الأرض. فبعد كشف كولمبس كانت كل من البرتغال وأسبانيا تتنازعان هذه الغنيمة الكبيرة.

وكان البرتغاليون بصفة دائمة يتكتمون أخبار كشفهم حتى أصبحت الخرائط والجداول والتقارير فى حالة سرية تامة، وتحت حراسة مشددة، وبقيت محجوزة بحيث لم يطلع عليها أحد فى المكتبات الملكية فى لشبونه ومدريد.

وبعد عشرين عاما من كشف كولمبس، قضى ضابط بحرى برتغالى ساعات طويلة، وهو منكب برغبة شديدة، يقرأ خرائط العالم الجديد، وجزر الهند، والطرق البحرية المعروفة. وكانت هذه الخرائط قد حفظت فى غرف الخرائط الحكومية فى لشبونه. وكان هذا الظابط يدعى فرناندو دى ماجلاسfernando de Magallaes.

كما كان يدعى بالأنجليزية فرديناند ماجلان، فكان يبدو عليه الكآبه، ومع ذلك كان ذا قوة خارقة وإرادة حديدية. وكان قد جرح فى إحدى رجليه عندما كان يحارب المراكشيين فى مراكش. وسبب له هذا الجرح عرجا دائما. وفى ذلك الوقت وفى الثلاثين من عمره وجد مشروع حياته أو عمره.

وكان جوز الطيب والتوابل تأتى جميعها من جزر ملقا أو من جزر التوابل. ولكن البحارة البرتغاليين حاولوا منذ ذلك الوقت ايجاد طريقهم إلى جزر التوابل. ففى عام ١٤٩٨م أبحر فاسكو داجاما من حول جنوب أفريقيا. ثم سار جهة الشرق حتى وصل الى مركز ملقا التجارى الواقع فى شبه جزيرة الملايو. وكان ماجلان قد وصل الى ملقا عندما كان يعمل فى خدمة البحرية (الأسبانية). وكان الطريق الذى سلكه والمؤدى الى ملقا طويلا ومحفوفا بالمخاطر، وتساءل ماجلان بالقول : لماذا لايحاول إيجاد طريق آخر يبدأ من جهة الغرب عند المحيط الأطلسى بحيث يصل الى أمريكا (أو العالم الجديد)، وبعد ذلك يمر عبر المحيط الذى كان بلباو قد رآه من قبل. وقال ماجلان بأن شواطئ

بنما يفصلها عن جزر التوابل كتله واحدة من الماء.

وإذا استطاع ماجلان الوصول الى جزر التوابل بالإبحار غربا، فإنه فى هذه الحالة سيكون فى استطاعته الاستمرار فى الطريق البرتغالى الذى يتجه الى ملقا، ثم يتجه إلى جهة الغرب. أى الى الهند. ومن الهند يدور من حول جنوب أفريقيا. وهكذا، حتى يصل مرة ثانية الى وطنه أى إلى البرتغال. وبمعنى آخر، فإنه يذهب صوب الغرب، ويواصل مسيره فى نفس هذا الإتجاه. وفى هذه الحالة يمكن الدوران من حول العالم.

وقد وجد خطأين عند تحقيق هذه الرغبة، أولهما أن ماجلان اعتقد فى وجود مضيق ليس من الصعب الوصول اليه، الذى يقوده فى طريق مستقيم بحيث يمر من خلال عائق الأرض الأمريكية. وبعد ذلك يدخل محيط بلباو. وثانيهما: انه كان يتمثل فى تخمين ماجلان الخاص بعرض المحيط الهادى، فكان تخمينه أن عرض هذا المحيط يبلغ ٦٠٠ ميل، وهو يمثل المسافة الفعلية التى تبدأ من الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية، وحتى جزر ملقا . ولكن عندما يكون المسير فى خط مستقيم فإن طول هذا الطريق يزيد على ١١٠٠٠ ميل.

وعلى وجه السرعة، واجه ماجلان مشكلة ترجع الى نزاهته والى هيمنته على الأسطول، ومن أجل ذلك واجه معارضة سيئة من قبل الملك عمانويل، فعندما طلب من هذا الملك القيام بمأمورية جديدة، رفض هذا الملك بفتور، لذا قرر ماجلان مغادرة البرتغال إلى الأبد.

ولكن بعد ذلك جمع ماجلان مجموعة صغيرة من أقاربه، ومن الأصدقاء الموثوق بهم، وأوكل اليهم القيام بمشروعه الكبير. الذى يتمثل فى الإبحار حول العالم وسافر معهم الى اسبانيا كى يقف على مدى إمكانية المساندة التى يمكن الحصول عليها.

وفى مدينه سيفيل Sevelle (أشبيلية) تزوج ماجلان من إبنه رجل ثرى، وفى نفس الوقت كان موظفا كبيرا فى الحكومة. وقد فتح هذا الزواج الطريق أمام ماجلان فقد أوعز المستشارون الى الملك الشاب تشارلس الخامس Charle 5 بقبوله لمشروع

---

* تتبع ماجلان مدينة ملقا الواقعة فى شبة جزيرة الملايو عام ١٥١١م، أى منذ أن احتلت بمعرفة الأدميرال الونزو دى البوكيرك البرتغالى (المؤلف)ماجلان وتنفيذه . ونتيجة لذلك فقد زود

الملك ماجلان * بخمس سفن و٢٣٤ بحارا.

ولكن كانت هذه السفن قديمة بحيث يمكن للماء أن ينفذ منها، فضلا عن أن عددا كبيرا من البحارة كانوا كسالى بل يجهلون تماما فن الملاحة البحرية، فكانت غالبيتهم من المتسكعين والمجرمين الذين كانوا من نزلاء السجون. وكان هدفهم من الإلتحاق بهذه البعثة هو الهروب من شحن السفن، ومع ذلك فقد جعل ماجلان كل الأطقم تقوم بترميم وإعداد السفن الصغيرة التى كانت فى حالة يرثى لها، وهكذا، ومنذ الوهلة الأولى لم يتعهد أفراد هذه البعثة بالإلتزام بما أوكل اليهم.

واستغرق العمل الذى قام به ماجلان فى ترميم سفنه عاما كاملا، وقد أصبح بحارته مع ذلك فى حالة جيدة، بحيث كان فى إمكانهم القيام بمهمتهم. وفى ٢٠ من شهر سبتمبر عام ١٥١٩م بدأت البعثة مهمتها، فمرت بجزر الكناريا، ومن بعدها اتجهت إلى الجنوب، ثم الى الغرب حتى وصلت الى البرازيل. وتعرضت فى جنوب المحيط الأطلسى الى عاصفة شديدة، وفى الوقت نفسه نقصت المؤن. ومع ذلك فإن الروح المعنوية لأفراد البعثة كانت عالية.

وبعد رحلة مرهقة، استمرت أربعة شهور، وصلت السفن الى مصب نهر اللبلاتا الشاسع، الواقع على الساحل الذى يسمى فى الوقت الحاضر بساحل الأرجنتين، واستمرت البعثة بعد ذلك فى مواصلة السير فى اتجاه الجنوب. وبعد ثلاثة أسابيع وصلت البعثة إلى ذلك الجزء من الساحل بحيث توقع ماجلان وجود المضيق، وفى ذلك تلمس الأسطول الطريق، وأخذ رجاله يتفحصون كل منفذ فى الشاطئ، وفجأة وعند الدوران من حول الرأس صاح الحراس قائلين: أن المياه الصافية تمتد حتى مدى رؤيتهم. وكان ماجلان يأمل فى أن يبدأ طريقه تجاه الغرب، لكن فى اليوم التالى، وصل إلى الشاطئ مباشرة. وفى الواقع كان قد أبحر مسافة فى داخل الخليج.

ولقد كان ذلك ضربة قاصمة بالنسبة له بحيث جعلته يفكر فى العودة، ولكن ماجلان تماسك وراجع نفسه، وقرر الاستمرار فى الإبحار، وعندما لفحتهم رياح باردة أرسوا السفن فى ميناء سنت جوليان Saint Julian فكانت الرياح تهب على هذه الميناء على مسافة آلاف الأميال من جنوب نهر لابلاتا. ومن هناك أعلن ماجلان

انه بدلا من الذهاب الى أرض الوطن قرر المكوث طوال فصل الشتاء مع أن اليأس كان قد دب فى قلب كل بحار. ولهذا خطط القبودانات الأسبان الثلاثة وهم جاسبار دى كويسادا Gaspar de Quesada ولويس دى مندوز Lewis de Mendoza وجوان دى كارتاجنا Juan de Cartagena للقيام بالثورة على ماجلان. ففى اليوم التالى، قاد كارتاجنا قوة مكونة من ٣٠ رجلا للصعود على ظهر المركب سان انتونيو San Antonio، وذلك للإستيلاء عليها، وفى الوقت نفسه عاد القبودانات إلى سفنهم الخاصة، وأخبروا أطقمتها بهذا التمرد كى يكسبوا مساندتها.

وفى الواقع. كان موقف ماجلان صعبا لأن ثلاث سفن من الخمس أصبحت ضده، ولكنه كان فى هجومه المضاد اسرع من المتمردين. وقد أرسل ماجلان قاربين الى سفينة مندوزا، وكان بالقارب الأول خمسة رجال بقيادة مدير شرطة ماجلان. وقد ظن الكابتن مندوزا ان ماجلان ارسل رسالة إستسلام، وبذلك سمح للبحارة الخمسة بالصعود الى السفينة فيكتوريا، وتم بعد ذلك تبادل حديث قصير وفى تلك الأثناء، كان القارب الثانى يقترب خلسة من السفينة فيكتوريا، وفجأة قفز إسبينوزا على ظهر السفينة الموجود عليها مندوزا، وطعنه بخنجر فى رقبته فأرداه قتيلا على ظهر السفينة، وتسلق بحارة القارب الثانى وهم ممسكون بسيوفهم، وعلى الفور استسلم البحارة المتمردون وهم فى ذهول.

ونتيجة لهذه المعركة أصبح عدد سفن ماجلان* ثلاث سفن ضد سفينتين وأما

---

* عندما قطع ماجلان مسافة ١٥٠٠ ميل تجاه الشرق من الفلبين. وجد مصادفه جزرا، قام سكانها بسرقة السفينة فيكتوريا وأطلق طاقم مركب البعثة لقب اللصوص على سكان هذه الجزر التى تعرف فى الوقت الحاضر باسم جزر المرياناس Marianas.

وكان الهنود أكثر عددا من الأسبانيين التابعين لماجلان، لهذا فإن أطقم السفن أسموهم باتاجون والكلمة الأسبانية الدالة على ذلك هى الحيوان الذى يسير على قدميه. وكان السكان يرتدون جلود حيوان التابير، وكان أغلبهم من السكان البدائيين الذين لم ير الأسبانيون مثيلاً لهم من قبل. وقد أسر الأسبان واحداً منهم، ولكنه مات فوق ظهر السفينة فيكتوريا. وفى القرن السادس عشر وجد رسم لسفينة ماجلان المعروفة باسم فيكتوريا والتى نقش عليها حروف لاتينية، وتقول هذه الحروف "مراكبى الشراعية هى الأجنحة والمجد هو مكافاتى.

وفى جزيرة ماكتان Mactan الواقعة بالقرب من سيبو Cebu، فى الفلبين ، قتل ماجلان بواسطة الوطنيين (المؤلف).

الباقى فكان أمرا سهلا. وفى تلك الليلة أرسل ماجلان قوة مسلحة للقضاء على بقية المتمردين، وتولى هو قيادة السفن واعتقل زعماء المتمردين. ففى يوم واحد أنهى ماجلان التمرد. وجعل أعداءه تحت رحمته. وقد أسف جميع البحارة على مابدر منهم، وأعدم كويسادا حتى يكون عبرة لأى بحار يفكر فى المستقبل فى القيام بأى تمرد.

وفى أقصى الجنوب، يأتى فصل الشتاء فى شهور يونية، ويوليو، وأغسطس. ففى نهاية شهر أغسطس يكون الجليد قد بدأ فى الذوبان. وفى هذا الوقت، كان ماجلان قد أمر سفن الأسطول باستئناف طريقها الشاق نحو الجنوب. وفى تلك الأثناء تحطمت السفينة سنتياجو فى أثناء الشتاء، وفى هذا الوقت بلغ عدد سفن الأسطول أربع سفن فقط.

وعند مغادرة ميناء سانت جوليان. أنزل ماجلان عقوبة صارمة على كارتاجنا ومساعده، وهما من المتمردين. وكان البرد لايزال قاسيا. وقد أخذ الرجلان الى الشاطىء فى ذلك الجزء النائى والموحش من العالم، وتركهما هناك. وبالطبع لم يسمع الرجال عنهما أى شىء مرة ثانية. لم يسمع الرجال عنهما أى شىء مرة ثانية.

وفى نهاية الشتاء، كانت الرياح عنيفة مما جعل الإبحار على طول الساحل فى اتجاه الجنوب شاقا. وفى ٢١ ديسمبر ١٥٢٠م، دار الأسطول حول لسان من الأرض، وهناك دخل فى خليج متسع. وكان هذا الخليج محاطا بالأرض تقريبا، واستمرت سفينتان فى المسير نحو الغرب حتى وجدتا فتحة فى الجانب الآخر من الخليج، والتى سمحت للأسطول بمواصلة طريقه. ودل ذلك على وجود بداية قناة طويلة تقع فى الجنوب وتصل بين محيطين، وسميت هده القناة بمضيق ماجلان.

وفى تلك الأثناء، سارت السفن مسافة نصف ميل بين الجروف العالية – التى تقع فى مجرى متعرج وواسع فى بعض الأماكن، ومغلق فى البعض الآخر – ثم واصلت المسير مسافة ٣٧٥ ميلا، ولم يكن هناك الا أمهر البحارة لكى يستطيعوا العبور بسفينة صغيرة فى أمان من خلال هذه المضايق.

ولم ير أثر للجنس البشرى فى هذه المناطق. ولكن فى أثناء الليل نقطت الجروف باللهب، وبقيت النيران مشتعلة – بواسطة الوطنيين الذين لم يغيروا أساليب حياتهم منذ

العصر الحجرى، ولم يتعلموا ابدا كيف يوقدون اللهب، فكان على كل واحد منهم أن يحتفظ بنارحلته (عدد من الأكواخ) مشتعلة طوال الوقت، وسمى الأسبان هذه الأرض باسم تيرو دل فيوجوTierro del fuego أى أرض النار.

وقد قضى ماجلان أكثر من خمسة أسابيع وهو يحاول العثور على طريق من خلال هذا المضيق وأخيرا، اقترب من ساحل شيلى، ورأى أمامه المحيط العظيم . وعندما رأى البحارة ذلك اصبحوا على ثقة بسرعة الوصول الى ملقا، وبتحقيق الثروة فى النهاية. وأطلقوا صيحات الفرح، ولكن ماجلان لم يشاطرهم ذلك، ولكن الرجل الحديدى (ماجلان) انفجر بالبكاء من شدة سروره. وتعبيرا عن عرفانه بالجميل.

وفى تلك الأثناء، كانت إحدى السفن، وهى السفنية سان أنتونيو San Antonio تتلكأ فى الخلف. وكان ربانها وهو ابن عم ماجلان الذى كان يدعى استيفاو جوميز Esteeveo Gomez، قد فقد أعصابه، وقام بتحريض زملاءه على القيام بمؤامرة جديدة، كان الهدف منها الهروب، والتخلى عن مهمة الكشف. وفى تلك الأثناء، كانت السفن تواصل إبحارها متقدمة نحو الامام، بينما كانت هذه المجموعة الموجودة فى الخلف تدبر مؤامرة ضد قائدها (ماجلان). وقد أبحرت هذه المجموعة من خلال المضيق المؤدى الى المحيط الأطلسى متجهة الى أسبانيا.

وكانت السفينة التى تخلت عن مهمتها هى أكبر السفن الأربع، وكانت تحمل على ظهرها معظم كميات التموين. وفى الوقت نفسه. كانت أمكانية نفاذ الطعام بالنسبة للسفن التى تسير فى المحيط (الهادى) وشيكة الحدوث، بل كانت تمثل أمرا مخيفاً بالنسبة لغالبية البحارة المخلصين، لذلك فكر الجميع فى العودة، ولكن لم يحدث شئ من هذا أو ذاك.

ولكن ماجلان لم يكن هكذا، وقال على البحارة ان يواصلوا المسير حتى ولو أكلوا الجلود التى تغطى أقنية السفن. وقد لبى البحارة مطلب ماجلان هذا، وبعد شهرين من المسير بجوار الشاطئ الشيلى، واصلت السفن الثلاث المتبقية المسيرفاتجهت أولا نحو الشمال كى تخرج من المنطقة الباردة. وبعد ذلك إتجهت البعثة جهة الغرب فى محيط ضخم.

وسارت السفن، وكان النسيم العليل، والماء الهادئ يتعقبانها، فالمسير كان سهلا وسريعا. لأن هذا المحيط هادئ، حيث أسماه البحارة الباسفيك. أى البحر الآمن. وقد فقد البحارة حماسهم، لان الأيام كانت تمضى الى أسابيع. والأسابيع تمضى عبثا الى شهور وهم يتفحصون هذه الرقعة المترامية المياه. التى لايمكن تصديقها. وقبل أن يروا أيه أرض على الأطلاق. كانوا قدر أبحروا تقريبا قدر المسافة التى أبحرها كولمبس للمحيط الأطلسى بمرتين. وبعد ذلك وصلوا الى جزيرة صغيرة جدا لم يحصلوا منها على أيه مساعدة أو على أيه راحة. وفى تلك الأثناء، كان لايزال أمام البحارة آلاف الأميال. ففى ذلك الوقت تعرضوا للحرارة القاسية والمجاعة والمرض حتى الموت. ومع ذلك، كان على ماجلان ان ينجز ماتعهد بأنجازه. لهذا كان يتظاهر بالشجاعة حتى أن لزم الأمر ان ياكل الجلد الملفوف حول حوض السفينة. وقد سردت قصة هذه المحنة فى تقرير حفظ بمعرفة أحد البحارة. وجاء فيه مانصه"اضطررنا لتناول فتات الخبز أو لباب الخبز. والدقيق المتبقى، الذى كان فى ذلك الوقت مملؤا بالديدان. وكنا نشرب الماء الردئ المصفر اللون. فضلا عن تناولنا لقطع الجلد، الذى كان ملفوفا حول أحواض السفن، وبذلك، أصبحت لثة أسناننا متورمة بسبب المجاعة والطعام الردئ فضلا عن ذلك فقد تعرضنا للجرب، وقد كان الكثير منا قد مرض بل كان البعض الآخر منا قد مات.

وفى النهاية، وبعد إبحار ماجلان من جنوب أمريكا بأربعة شهور تقريبا. وجد أرضا جديرة بالزيارة، كانت هذه الأرض عبارة عن مجموعة من الجزر، تعتبر مراكز أمامية بالنسبة للشرق. ففيها وجدت أشجار النخيل والموز وجوز الهند والفواكه الطازجة واللحوم. وفى هذا المكان شفى البحارة من جربهم.

وقد تجمع البحارة خارج السفن. وأقاموا علاقات صداقة وطيدة مع السكان الذين كانوا يسرقون اى شئ يقع تحت أيديهم، وسمى ماجلان هذه الجزر باسم لادرونسladrones "جزر اللصوص" ويعرف عدد من هذه الجزر اليوم باسم جزر ماريانسMarianas.

وقد مكث ماجلان فى هذه الجزر، فترة طويلة كى يحصل منها على الإمدادات

اللازمة، وبعد ذلك. استأنف طريقه نحو الغرب مؤلا فى الوصول السريع الى جزر ملقا. وبعد اسبوع اعتقد انه قد وصل الى هدفه . ولكن الشاطئ الذى رآه كان جزيرة من مجموعة جزر سميت بعد ذلك بالفلبين.

وكان ماجلان الأوربى الأول. الذى زار هذه الجزر، وقابل - هناك - تجارا من الصين، ومن أجزاء أخرى من الشرق الأقصى . وعلم منهم أنه فى استطاعته الوصول الى ملقا. وذلك بالأبحار مئات قليلة من الأميال جهة الجنوب . وكان انتصار ماجلان يمثل لحظة انتصار هام. فقد ادرك انه استطاع الوصول الى ملقا . ومن تلك الجزر واصل السفر متتبعا الطريق المألوف. عائدا الى أسبانيا. وهكذا أثبت ماجلان أن الأرض كروية. وذلك عن طريق الدوران من حولها، مع ان ذلك كان يمثل بالنسبة للأوربيين رعبا حقيقيا .. ولكن لم يدم هذا النصر طويلا لماجلان المسكين. فبعد وصوله الى الفلبين حاول حماية جماعة من أصدقائه الوطنين من هجوم قبيله معادية لهم. فكان ماجلان قد قاد خمسين من بحارته خلا مستنقع، وفى أثناء ذلك وجد نفسه محاصرا بحشد كبير يقدر بالمئات من المحاربين الغاضبين. وقد واجهت المجموعة الأسبانية الصغيرة هذا الحشد، مع أن ماجلان كان معوقا بسبب عرجه. لذا تعرض لسيل منهمر من حراب السكان الهمج فأردته قتيلا.

وبعد هذه الهزيمة، هاجم الوطنيون الأصدقاء الرجال البيض وذبحوا الكثير منهم. وفى ذلك الوقت. لم يكن هناك أفراد يكفون لقيادة السفن الثلاث المتبقية. لذا قام الأسبان بحرق واحدة من هذه السفن وهربوا من الفلبين فى السفينتين المتبقيتين ترينداد Trinidad، وفيكتوريا* . Victoria وبعد مرور عدد من الأسابيع كانوا

---

* أبحر جوان سبستيان دلكانو Juan sebastian delcano بالسفينة فيكتوريا عائدا الى أرض الوطن فى اسبانيا بعد وفاة ماجلان. وقد وصل سبستيان الى ميناء سان لوكار San Lucar (سبستيان) باسبانيا ومعه ١٨ بحارا من الذين ظلوا على قيد الحياه فى ٧ سبتمبر ١٥٢٢ م . وكافأه الامبراطور تشارلس الخامس. ولم يحصل ماجلان على مكافأة لأنه كان قد مات قبل ذلك. وقد حفر نقش لاتينى حول الكرة الأرضية التى لفت بجاكته الحرب وكتب عليها هذه العبارة Primus Circumdedisti أى تعنى انتم أول من أبحر من حولى You were first around me.

فى حالة يرثى لها. حيث احدق بهم الموت. وفى النهاية وصلوا الى ملقا. وهناك شحنوا السفن بالبهارات. وكان هؤلاء البحارة تواقين لمارسة هذه الأعمال حتى أنهم خلعوا ملابسهم. وتاجروا فيها من أجل الحصول على هذه السلع الثمينة. وفى هذا الوقت . كان قد بقى من البحارة على قيد الحياة ١٠١ رجل من جملة عددهم البالغ ٢٣٤ رجلا. كانوا قد أبحروا من اسبانيا.

وفى تلك الأثناء، واصل ٤٧ بحارا مسيرهم على ظهر السفينة فيكتوريا متجهين نحو الغرب عبر المحيط الهندى، ومروا من حول افريقيا، وبعد ذلك اتجهوا الى أسبانيا. وأما السفينة ترينداد فكان بها ثقب لذا تخلفت للإصلاح. وفى النهاية، وصلت السفينة -فيكتوريا- إلى أسبانيا عام ١٥٢٢ م، وعلى ظهرها ١٨ بحارا ، فقط من الذين ظلوا على قيد الحياة بعد ان حاصرتهم المجاعة فترة طويلة ، وبعد ان قضى الجرب على كثير من هؤلاء البحارة الأحياء الذين كانوا على ظهرها. وتعتبر السفينة فيكتوريا هى السفينة الأولى التى أبحرت حول العالم.

جـــزر فلوريـــدا

وصل كثير من المغامرين إلى شمال أمريكا خلال سنوات قلائل، بعد كشف كولمبس لها، وكان من هؤلاء المستكشفين الذين زاروا مايعرف فى الوقت الحاضر بالولايات المتحدة الأمريكية، جندى أسبانى – جدير بالثقة والتصديق – يدعى جوان بونس دى ليون Juan ponce de leon.

وكان بونس دى ليون هذا، قد أبحر مع كولمبس فى رحلته الثانية الى أمريكا عام ١٤٩٣م، وخدم فى المستعمرة الاسبانية هيسبانيولا. فكان ضمن أفراد القوة التى أخضعت هذه الجزر واستعمرتها. وبعد ذلك. اكتشف بورت ريكو Puerto Rico وفتحها عام ١٥٠٩م، حيث أسس هناك ضيعة كبيرة له، كما بنى قلعة ولى نفسه حاكما عليها.

وكان سكان هيسبانيولا يموتون بسرعه بسبب عملهم فى مناجم الذهب، وبسبب نقص التغذية والعمل الشاق. وكان سادتهم يقومون باستبدالهم من حين لآخر بسكان الجزر الأخرى. ومن سكان هذه الجزر سمع الأسبان قصصا عن أرض خرافية وصفها الهنود وصفا غير حقيقى، وكان من هذه الأرض جزيرة قريبة تقع فى الشمال أسموها جزيرةبمينىBimini . وبعد عدة سنوات، سمع بونس دى ليون حديثا عن بمينى. لذا فكر فى تحقيق أمجاد وثروات. ومن هنا توالى إبحار الرجال الأسبان الأول . ومن الجدير بالذكر انه سردت له قصة خيالية بواسطة أمرأة هندية عجوز حيث قالت هذه المرأة يوجد فى بمينى نافورة سحرية، تتدفق المياه منها دون توقف وعندما يشرب الناس العجائز والشيوخ مياهها. يصبحون شبابا من جديد. واستمع الفاتح الأشيب لبلاد المكسيك باهتمام بالغ، وكان بونس هذا يبلغ من العمر فى ذلك ٥٠ عاما.

وفى ربيع عام ١٥١٣م، بدأ بونس دى ليون فى الإبحار من بورتوريكو على رأس ثلاث سفن، وقد اتخذ طريقة من خلال سلسلة البهاما التى يزيد عددها على ٧٠٠ جزيرة، فهى تمثل جزرا منخفضة، أو أوتادا لتثبيت قطع صغيرة من الصخور والشعاب. ولم يستطع بونس دى ليون كشفها جميعا. كما لم يزر الجـزر العديدة المتضمنه جزيرة

سان سلفادور، التى كان كولمبس قد رآها أثناء قيامه برحلته الأولى التى اكتشف خلالها أرض العالم الجديد. وفى يوم الأحد، عيد الفصح الموافق ٢٧مارس عام ١٥١٣، ألقى بونس دى ليون نظرته الأولى على الساحل الذى يعرف الآن، بالولايات المتحدة. وبالقرب من هذه المنطقة التى مر على كشفها ٥٢ عاما اسست مدينة سانت أوجستين التى تعتبر أقدم مدينة لاتزال توجد فى الولايات المتحدة. ولقد عرفت الأرض التى اكتشفها بونس دى ليون باسم فلوريدا، وتعنى بالاسبانية باسكوا دى فلوريز، وهو الإسم الأسبانى لعيد الفصح - وهو يعنى وقتا من السنه تظهر فيه أول الزهور، وبعد سته أيام من السفر، وجد منطقة أمينة فحط رجاله، وذهب إلى الشاطئ، ورفع العلم الملكى عليه، وطالب بملكية هذا الوطن لأسبانيا.

وبسرعة تعرف بونس دى ليون على هنود هذا الوطن الذين لم يكونوا شعبا جبانا تعوزه الحماية، بل إن هذا الشعب هو الذى تغلب بسهوله على اخضاع الهيسبانيولا، فكان رجاله محاربين أقوياء مع أنه لم يكن لدى أفراده أسلحة يبارون بها بنادق الرجال البيض، فكل ماكان لديهم يتمثل فى الأقواس والحراب المسمومة الأطراف. وفوق كل ذلك كانت معنوياتهم مرتفعة فكانوا مستعدين للحرب بصفة مستمرة. وقد غامر بونس دى ليون وأتباعه مرات قليلة فى الذهاب إلى هذه الأرض، ومع ذلك لم يتجاسروا أبدا ولو مرة واحدة على استكشاف الداخل. وبعد ذلك عاد الأسطول إلى جهة الجنوب هابطا على طول الساحل الشرقى حتى رأس كنفيرال التى تطلق الصواريخ الفضائية منها فى وقتنا الحاضر . وهذا يمثل نوع من الكشف الجديد. وفى أثناء مرور البعثة من الخليج، وحول الرأس أصطدمت بهذه الرأس.

وبعد أسابيع من الصراع فى هذا المجرى الواسع. عثروا على طريقهم . الممتد على طول جزر فلوريدا. وبعد ذلك، تتبعوا الساحل الغربى، الذى قادهم الى انحناءة حادة تقع تجاه الغرب. ومن بعدها عادوا الى أرض الوطن ولم يعرف بونس دى ليون، على وجه الدقة الأرض التى رآها أهى جزيرة أم لا. ولكن كل ماعرفه عنها أنها أرض شاسعة لدرجة انها أكبر من جزيرة كوبا الكبيرة، وفى نفس الوقت، اعتبر كشفه على جانب من الأهمية. فعندما عاد الى اسبانيا أخبر الملك بهذا الكشف، وتحدث عن جزيرة

فلوريدا . ولكنه لم يتحدث عن نافورة الشباب. حيث لم يكن أمامه متسع من الوقت للبحث عنها. لهذا كان قد قرر العودة للعالم الجديد بمعدات أفضل ،ووعده الملك بأنه فى حالة فتح فلوريدا ، فإنه سيعينه حاكما عليها.

وبعد وصول بونس دى ليون الى العالم الجديد شغل نفسه فى السنوات التالية بقمع ثورات قبيلة الكارب Carib tribe القاطنة فى جزر الهند الغربية. وفى عام ١٥٢١ واصل بونس دى ليون مهمته الى فلوريدا مرة ثانية. وفى هذه المرة كان معه سفينتان مسلحتان تسليحا جيدا. ففيهما : ٢٠٠ من الرجال المدربين على أعمال القتال، ٥٠ حصانا، وهناك صمم على إنشاء مستعمرة دائمة، ويعنى هذا بالطبع استثمارا لخطة بعثته. ولما وصل الى فلوريدا، قاد طاقم احدى سفنه نحو الشاطئ، ولكنه قوبل على الفور بقوة من الهنود الشرسين. فارتد على أثر هذا اللقاء . ومعه رجاله من البيض، رغم ارتدائهم للدروع. وكانت قوة الهنود تكمن فى السهام الكبيرة التى استطاعوا ان يشقوا بها خوذة أو درعا.

وقام الهنود بقتل وجرح الكثير من الغزاة. ففى خلال معركة بسيطة تمكنوا من طرد الغزاة بعيدا، وفى تلك الأثناء، تعرض فخذ بونس دى ليون إلى طعنه قوية من سهم أحد الهنود، وعلى الفور سقط على الشاطىء، ولكن زملاءه قاموا بحمله، وعادوا به إلى السفينة، ولسوء الحظ لم يكن هناك فى تلك اللحظة طبيب من بين افراد البعثة. ولكنهم كانوا يأملون فى إيجاد طبيب فى هافانا بكوبا لذلك ابحروا على وجه السرعة الى هناك. ولكن بعد أيام قلائل من وصول بونس دى ليون الى هافانا مات متأثرا بجراحه.

ولم يكن بونس دى ليون يعلم ماالكتشفه هل هو جزيرة أو قارة، مع أن رحالة اسبانيين آخرين كانوا قد زاروا فلوريدا قبل قيام بونس دى ليون برحلته الثانية. وقد ثبت بأنها جزء من الأرض الأمريكية الرئيسية.

وفى عام ١٥١٩م، قام الونزو الفاريز دى بندا Alonzo Alvarez De pineda بكل المغامرات الكشفية. ففى تلك الأثناء ، كان ماجلان يبحث عن مضيق يعبر من خلاله إلى المحيط الهادى . فعلى مسافة آلاف الأميال نحو الجنوب. أبحر بندا من جزيرة جاميكا إلى فلوريدا . وهو يفكر فى هذا الهدف نفسه. وخلال تسعة شهور

جاب أسطوله – المكون من اربع سفن شراعية – شاطئ خليج المكسيك، متجها مع الجانب الغربى من فلوريدا، وبعد ذلك، دار الى حيث توجد مدينه تمبيكو Tampico. ومع ذلك، فلم يجد منفذا يؤدى إلى بحر الجنوب لهذا عاد أسطوله أدراجه. وفى طريق عودته نحو الشرق، وجد بندا وبالصدفة المحضة . "نهراً ذا مياه عظيمة" أطلق عليها بندا اسم "ريو دل اسبيريتو سانتو Rio dell Espirito Santo أى نهر الشبح المقدس، وكان هيرناندو دى سوتو Hernando de soto قد اكتشف نهر المسيسبى، بل وجد انه هو النهر الذى كان بندا قد وصل اليه قبل ذلك بعشرين عاما من وصول دى سوتو.

فتح المكسيك وبيرو

إزدحمت السفن بالصيادين السعداء، الذين ابحروا فى أعقاب كولمبس إلى العالم الجديد. فكان الكثير قد فقد حياته فى المغامرة، وكان الأخرون منهم قد عادوا إلى وطنهم وهم خاوو الوفاض – أى بدون شئ يحملونه معهم، أويدون ان يحملوا فى ايديهم شيئا يذكر– ومع ذلك. فقليل منهم أصبح ثريا بسبب الذهب الذى حصلوا عليه من المناجم ومن اللؤلؤ، ومن صيد الأسماك وأثرى آخرون بسبب العمل فى الأرض (استعمار) فمن المكسيك وبيرو حصل الفاتحون على أموال ضخمة.

لقد قوبلت الأعمال اللصوصية، والظلم باحتجاج قليل فى هذه الأوقات عما هو عليه اليوم. فقد انتشر العنف والقسوة فى العالم الأوربى "المتحضر" والى جانب أعمال العنف والقسوة هذه كانت هناك همجية الشعوب الأمريكية. فقد كانت جريمة الغزو التى تسمى بالفتح، بحيث أصبح القتل الجماعى يمثل أحيانا جزءا ضروريا من الفتح، ووجد الرجال البيض مبررا للهنود لتناولهم اللحوم البشريه. وقالوا ان الهنود لم يعبدوا الها حقيقيا. وفى بعض الأحيان، قال الهنود نفس الشئ عن مستعبديهم. وكان من هذه الأدوات، الأسلحة المصنوعة من الصلب والبارود. والبنادق. وكانت هذه الأسلحة أكثر فاعلية من الأسلحة التى يمتلكها الهمج.

لقد أتى الكاهن الأسبانى بارتولومى دى لاس كاساس Bartolome de las Casas الى أمريكا عام ١٥٠٢م، وقضى عدة سنوات فى المستعمرات الجديدة. وفوض اتباعه من الأسبان فى القيام بقتل اعداد كبيرة من الهنود. وبعد مئات السنين أتهم هذا الكاهن بالمبالغة من جانب المؤرخين. ولكن كيف يكون ذلك مبالغة علما بأن هؤلاء المؤرخين لم يكونوا هناك مع لاس كاساس الذى كتب يقول " رأيت بعينى المجردة مايزيد عن سته آلاف طفل يموتون كل ثلاثة أو أربعة شهور.

وفى ذلك الوقت. كان الأسبانيون منهمكين فى بحثهم عن الذهب دون التفات الى لاس كاساس. فمن على قمة كوبا الغربية. رأوا ساحل الياكتان الذى يقع فقط على

مسافة تزيد قليلا عن مائة ميل عبر الكاريبيان. وقد جرب المغيرون الأسبان واحدة من غزواتهم هناك، ولكن طردوا بعيدا بمعرفة هنود المايا المناوئيين. وقد ذكر المغامرون الأسبان فى كتابتهم أنه عند عودتهم الى كوبا شاهدوا المواطنين يرتدون الذهب. لهذا السبب نظم فلسكيز Velasquez حاكم كوبا فى مرة من المرات بعثة مكونة من أربع سفن. وفى عام ١٥١٨م، بدأت هذه البعثة مهمتها الى الياكتان Yacatan وكان برفقته فى هذه الرحلة ابن أخيه المسمى جوان دى جريجالفا Juan de Grijalva وهناك، قام بمحاربة هنود المايا بشراسة، لأنهم يتعلموا أبدا كيفية استخدام الأسلحة الحديدية، فبدون ذلك المعدن، وبدون البنادق أصبح الهنود فى مأزق رهيب. فكانت دروعهم الوحيدة تصنع من خيوط القطن. وكان الهنود يعلقون السهام والحراب والسيوف - التى كانت تصنع من رقائق حادة من الزجاج البركانى سهل الكسر - فى الجزء المفتوح من الدرع. وفى معركة عنيفة فقدوا (أى الهنود) مئات عديدة من الرجال. وبعد ذلك ولوا مدبرين.

وفى ذلك الوقت. انتشرت أشاعة كان مفادها أن القوات الأسبانية قوية لدرجة كبيرة لهذا تركت دون أدنى مقاومة من جانب الوطنيين، وظلوا يمارسون عمليات الكشف. وبعد ذلك أبحر الأسبان بمحازاه الساحل لمسافة قليلة من مئات الأميال. حتى وصلوا الى موقع مدينه فريكورز الحالية Veracruz (مكسيكو). وهناك. كانوا على مسافة ٤٠٠ ميل فقط من عاصمة الأزتك الكبيرة Aztec المعروفة باسم تنوشتيتلان مكسيكو Tenochtitlan Mekcico city، واقتنع جريجالفا الى حد كبير بأنه على حافه أطراف أمبراطورية شاسعة أكثر ثراء من أى قطر يراه بعد ذلك فى العالم الجديد. فقد رأى منازل حجرية ضخمة، ومعابد فاخرة. وعلم جريجالفا من الناس الذين تحدث معهم بأن حاكم امبراطورية الأزتك يمتلك كميات ضخمة من الذهب الذى خزنه بعيدا فى مستودعات بضائع كبيرة. وعلم جريجالفا أيضا أن الإمبراطورية كانت تأخذ ضرائب كثيرة من سكانها. حيث أن مدنا كثيرة كانت على حافة الثورة. لذا اسرع جريجالفا بالعودة كى يخبر عمه حاكم كوبا بهذه الأخبار. وعلى الفور، بدأ الحاكم فليسكيز على رأس بعثة كشفية ومسلحة تسليحا جيدا، وعندئذ،

دهش جريجالفا بل حزن لعدم اختياره لقيادة هذه البعثة، وقد تآمر فرناندوكورتيه * Hernando Cortier الجندى السياسى والبالغ من العمر ٣٤ عاما ضد جريجالفا، وبخطة محكمة استطاع كورتيه أن يؤلب الحاكم فلسـكيز ضد ابن أخيه جريجالفا.

وهكذا، فقد نجح كورتيه فى غزو المكسيك. وفى فبراير عام ١٥١٩م، قام فلسكيز على رأس ١١ سفينة و٦٠٠ رجل ليرى ماذا يمكن تحقيقه لأسبانيا - ولنفسه - من هذه الإمبراطورية الضخمة التى تقع فيما وراء الساحل.

وفى يوم الجمعة الموافق ٢٢ من شهر أبريل عام ١٥١٩م، رسى كورتيه فى المكسيك. وكان قد حذر من أن الـ ٦٠٠ رجل سيواجهون جيشا ضخما من حيث التدريب والقوة والكثرة العددية. التى تقدر بعشرة آلاف جندى. ولكن كورتيه كان على يقين من أن بعثته الصغيرة المكونه من عدد من الغزاة كانت تحمل معها أدوات حربية ممثلة فى البنادق والمدافع، وبذلك لايمكن لأسلحة الهنود الممثلة فى السهام والأقواس القاتلة مواجهة هذه الأسلحة. فأسلحة الأسبان كانت تنزل الرعب فى قلوب البربر الشجعان وقد تقدم قوة الأسبان الغازية سته عشر حصانا. وقد دهش الهنود عند رؤيتهم للخيول لأنه لم يكن بأمريكا خيول فى ذلك الوقت، يمكن للأسبان الحصول عليها.

زد على ذلك فإن الهنود دهشوا. بل فزعوا عندما نصب جنود كورتيه مدافعهم استعداد لبدء معركة هجومية ضد الهنود فى تاباسكو Tabasco. وقد شوهدت الخيول وهى تضرب الأرض بحوافرها. كما سمع رنين عدد الحرب. ولم يكن أمام الهنود إلا التلويح بسوفهم. واعتقد الأزتكس بأن الرجال البيض وخيولهم كانوا عبارة عن مخلوق واحد ومع ذلك، فقد كان الموقف فى المكسـيك أحسن حالا بالنسبة لفرناندو كورتيه والأسبان عما توقعـه جريجالفا. ومنذ عهد بعيد، اعتقد سكان مكسيكـو فى اله

---

* قاد كهنة الازتكس - فى معبد المكسيك - الضحايا البشرية على السلالم المؤدية الى المذبح، فقد قدموا قرابين الى الشمس. ولما وصل كورتيه الى تنوشتتلان (مدينة مكسيكو) وجد المعبد الموجود هناك مزين ب ١٣٦،٠٠٠ جمجمة (المؤلف)

يدعى كوتيزال كوتل، الذى كان قد قدم عبر الماء من الشرق الى أرضهم وبصحبته عدد من الآلهـة. وكانت وجوههم بيضـاء ملتحية. وقد حكموا لمدة من الوقت. شعب المكسيك وبرهنوا على انهم يميلـون الى الرأفـة والشفقـة والطيبـة. وبعد ذلك انقـلب يدعـى كوتيزال كوتل، الذى كان قد قدم عبر الماء من الشرق الى أرضهم وبصحبته عدد من الآلهـة. وكانت وجوههم بيضـاء ملتحية. وقد حكموا لمدة من الوقت. شعب المكسيك وبرهنوا على انهم يميلون الى الرأفة والشفقة والطيبة. وبعد ذلك انقلب الناس عليهم وطردوهم بعيداً. ولكن عندما رحل الأله كويتزال كوتل * quetzal coatl قال: إنه سيعود فى يوم ما ويعاقب كل الوطن بسبب أفعاله المؤذية. وقد اعتقد كل واحد فى المكسيك ابتداء من الكهنة وحتى الإمبراطور العظيم منتوزوما Mantezoma نفسه فى هذه القصة التى انتقلت اليهم من أسلافهم. ولما ظهر كورتيه وأتباعه على المسرح، تاكد الأزتكيون بأن يوم العدالة قد جاء، وأن الآلهة البيض عادوا لينزلوا جام غضبهم (على الهنود) مع أن الاسبانيين جاءوا من أجل النهب والسلب . وقد تمكن كورتيه فى وقت قصير من الحصول على أجزاء كبيرة من امبراطورية الأزتكس. وضمها الى جانبه. وذلك عن طريق الوعد الذى قطعه على نفسه. من أنه سيحررهم من حكم منتوزوما الطاغية. وعلى الفور قاد كورتيه الآلاف من القوات الهندية ضد العاصمة مكسيكو (تنوشتتلان). وقد سار هذا الجيش الى داخل المدينة متظاهرا بالصداقة الى منتوزوما. وبعد ذلك وبخيانة وغدر، القى القبض عليه ثم اقتيد كسجين ورهينه فى وقت واحد.

وكان شعب مدينه مكسيكو فى حالة من الفوضى واليأس. وذلك يرجع الى أن حاكمهم العظيم"سيدهم الغاضب" المنتوزوما، قد وقع فى أيدى الأسبان الغزاة، لهذا لم

---

* رسمت صورة رمزية للإله كويتزال كوتل تولتكQuetzal coatl toltec God، بمعرفة هندى أزتك، وقد هزم التوليتكس، بمعرفة الأزتك قبل مجئ كورتيه ب٢٠٠عام. ولكن بعد ذلك اعتنق الأزتك اله نجم الصباح و الكويتزال كوتل. ويقال إنه يعرف بإله نجم الصباح. وهو يتمثل فى أنه رجل أبيض طويل وذو شعر ذهبى. وكانت شارته عبارة عن ثعبان ملون – ثعبان لم يكن جلده ذو حراشيف – كان جلده قد صنع من ريش طائر الكويتزال. واعتقد الأزتكس بأن هذا الإله الأبيض سيعود بعد يوم واحد من عقابهم (المؤلف)

يرغب سكـان مكسيكـــو فى رؤية زعيمهم متألما. وفى حقيقة الأمر، ظل منتوزوما *مصراً على أن هؤلاء الرجال البيض كانوا آلهة، لذا أرسل رسائل إلى شعبه يحثه فيها بعدم شن الحرب على الرجال البيض، مع أن الأسبان كانوا يقومون بقتل الهنود بالآلاف فى معركة تلو الأخرى.

وعلى الرغم من ذلك، كان يوجد هناك رجال آخرون من بين الأزتكس، يمثلون الأمراء، وقادة الجيش الشجعان. الذين لم يخدعوا بسهولة مثل المنتوزوما، ففى الوقت المناسب تحققوا من أن هؤلاء الغزاة، لم يكونوا آلهه، جاءوا إلى بلاد الأزتكس ليوزعوا العقاب بطريقة عادلة، بل هم فقط جاءوا ليسلبوهم حريتهم ويدمروا امبراطوريتهم. وبعد ذلك هب هؤلاء الرجال، وقادوا شعب مدينة مكسيكو ضد الأسبان. وفى الوقت نفسه. احتشدت جموع الناس المتوعدة حول القصر حيث اعتقل المنتوزوما سجينا، وأقنع كورتيه منتوزوما بالخروج إلى السطح والتحدث إلى الناس طالبا منهم عدم الهجوم، ولكن مع ذلك، فقد فقدت مجموعة من هؤلاء الناس احترام سيدها ورجموه (منتوزوما) بالحجارة حتى سقط من فوق السطح وهو فى حالة يرثى لها. وبعد ذلك، أى فى ٣٠ من شهر يونيو عام ١٥٢٠م، أطبقت الجيوش الهندية على الأسبانيين وفى ليلة المعركة العنيفة التى سميت نوش ترست Noche Triste أى ليلة الحزن، قتل كثير من الأسبانيين الذين كانوا يحاربون وهم فى طريقهم إلى خارج المدينة، فتمكنوا من الهرب بكل صعوبة ومعهم أمتعتهم.

وفى مسافة آمنة أعاد كورتيه بناء جيشه مرة ثانية، وبعد ذلك سار مسافة أكبر إلى العاصمة. وفى هذا الوقت، فرض حصارا حولها بل أحكم هذا الحصار بمساعدة آلاف من المتمردين الهنود. وقطع كورتيه عن العاصمة أيضا الإمدادات لمدة ثلاثة شهور. وفى النهاية ضعف المدافعون بسبب الجوع والمذابح التى اضطرتهم إلى التسليم. وفى ١٣ اغسطـس عـام ١٥٢١م، حقق كورتيــه النصـر بعد أن أكتمل فتـح

---

* عندما رسى كورتيه أخطأ منتوزوما فيه. واعتبره. الإله الكويتزال كوتل. ومن هذا المنطلق فقد عامل منتوزوما عدوه على أساس أنه اله، فقدم الى كورتيه الهدايا آملا أنه يمكن رشائه كى يغادر فى سلام إمبراطوريته الغنيه ..(المؤلف).

مكسيكو . وبعد ذلك أطلق على هذا القطر (مكسيكو) أسبانيا الجديدة. وعلى هذا فقد قدم إليها اسبانيون آخرون ثم أعاد كورتيه بناء العاصمة الأزتكيسة. ومنذ ذلك التاريخ ومابعده، فرض كورتيه * وأسلافه السيطرة على هذه الأرض الجديدة.

وبنفس الأسلوب، وبعد سنوات قليلة، سار فرانسسكو بيزارو Francisco Pizaro إلى الأمبراطورية القديمة التابعة للإنكا، والواقعة فى بيرو. وفى ذات يوم، سمع بيزارو عندما كان فى دارين Darien هنديا يحكى قصة إلى نانيز بلباو Nunez Balboa عن مملكة الذهب العظيمة فى بيرو، والتى تقع فى الجنوب، ورغب بيزارو فى القيام بمثل هذا الفتح العظيم، وبعد ذلك قام بتنظيم عمليات الفتح هذه على فترتين متتاليتين، وذلك باعداد بعثات كشفية، ولكن بعد إرسال هذه البعثات باءت جميعها بالفشل. وفى عام ١٥٣١م، بدأ بيزارو فى الإبحار نحو الجنوب فيما وراء بنما. وكان برفقته ثلاث سفن وذلك فى محاولة اخرى. وكما حدث للأزتكس فى مكسيكو ، حدث للإنكا فى بيرو . فقد فرق الصراع الداخلى شعب الإنكا فى بيرو بل وأضعفهم. وفى هذه المرة، تمتع الأسبانيون بالقدرة والتفوق واستعمال العنف والقسوة. فكان بيزارو قد تقدم وبرفقته ١٨٠ جنديا. كان من ضمنهم ٢٧ فارسا فى داخل الوطن. وبسهوله حقق بيزارو انتصارات قليلة على الهنود الذين قابلوه فى بدايه الأمر. وبعد ذلك اتخذ بيزارو طريقه من خلال جبل مرتفع، ثم بعد ذلك من خلال جبال الأنديز، حتى وصل الى مدينة كاجاماركا Gajamarca التى كانت موطن الامبراطـــور اتـاهوليا Atahualpa*. وهنا وبجدارة منقطعة النظير. دخل كورتيه مكسيكو، وفى الوقت نفسه، سار بيزارو الى داخل مدينه كاجاماركا. وعسكر بجيشه فى الميدان الأوسط الكبير. وفى نفس الوقت لم يقم أتـاهولبا بأيه محاولة لإبعاد الأسبـانيين عن عاصمـــة

---

* بعد أن بدأت الحرب بـ ٧٥ يوما ، وعلى وجه التحديد فى ١٣ اغسطس. دافع المقاتلون الهنود عن المدينة دفاعا عظيما لدرجة أن كورتيه قتل فى هذه المعركة (المؤلف).

* عند كاجاماركا. حمل أتاهولبا إلى الأسبان على كرسى ذهبى ولما رآه رهبان فالفيرد Valverd فى كنيسة بيزارو حاولوا تحويله إلى الكاثوليكية ولكن امبراطور الإنكا امسك بانجيل فالفيرد وقذفه بغضب على الارض.

ملكه، لأنه كان واثقا من تحقيق النصر عليهم. وعندئذ، أرسل بيزارو* رسالة الى أتاهوليا، يدعوه فيهاإلى القدوم إلى المعسكر، وذلك من أجل المفاوضات. وقد قبل اتاهوليا الدعوة. وفى اليوم التالي الموافق ١٦ من شهر نوفمبر عام ١٥٣٢م، حمل اتاهوليا على محفة إلى معسكر بيزارو، وكان برفقته ٤٠٠٠ رجل، علاوه على حاشيته، وكهنته الكبار، وقادة جيشه، وعدد كبير من الحراس. وفى تلك الأثناء اخفى بيزارو نفسه ورجاله خلف الأسوار والأبنية التى تحيط بالميدان Plaza ، وبينما كان رجال الدين الإنكيون يتحركون إلى وسط الميدان، وجدوا هناك قسيسا اسبانيا فقط، حاملا معه الإنجيل، والى جواره مترجم هندى ، وأخبر هذا القس الأسبانى اتاهوليا وأتباعه عن عبادة الهمم المزيفة وعليهم أن يعتنقوا ديانة الأسبان.

وعندئذ، أصبح اتاهوليا ساخطا، بحيث قال: إنه يرغب فى رؤيه كتاب الصلاة الذى يحمله القس الأسبانى، ولما تناوله أتاهوليا * من القس الأسبانى قذفه على الأرض، أى قدف الإنجيل. وفى تلك الأثناء، قفز بيزارو* من مكان اختفائه وصاح قائلا :سانتياجو Santiago، سنت جيمسSaint James، كما صاح للإسبانيين قائلا: "المعركة"، وكانت هذه هى الإشارة المتفق عليها بينه وبين رجاله كى يهجموا. وقد هزم الأسبانيون القادة الهنود المحاصرين والذين كانوا محتشدين معا فى وسط الميدان. فكانت المدافع قد أطلقت. كما دوت طلقات البنادق. عندئذ، تفرق هؤلاء الهنود الذين لم يحاولوا أن يقاتلوا مرة ثانية، بل هربوا فى ذعر. ومع ذلك فقد هاجمتهم فرسان الأسبان فى خط مستقيم وداستهم تحت أرجلها، وضربهم الأسبان بسيوفهم وألقى رجال بيزارو القبض على أتاهوليا وحملوه خارج المدينة. وفى خلال نصف ساعة انتهى كل شئ، وامتلأ ميدان (البلازا) بجثث ٤٠٠٠ رجل، فضلا عن جميع

---

* قال فالفيرد (اهجموا على الفور) وسأغفر لكم. عندئذ خرج رجال بيزارو من المخبأ، وبدأوا القتال(المؤلف).

* هنا يقف جندى أسبانى فى حراسة اتاهوليا، الذى يجلس وهو مقيد الايدى والارجل فى سجنه فى انتظار توفير الفدية الضخمة من الذهب.

* فى عام ١٥٣١م، بدأ فرانسسكو بيزارو ومعه ١٨٠ رجلا فى الذهاب الى بيرو. وفى بداية نوفمبر من عام ١٥٣٢ ، سجن بيزارو الامبراطور اتاهوليا الإنكى. وأصبح هو سيداً لهذا الوطن (وطن اتاهوليا) (المؤلف)

قادة امبراطورية الإنكا العظيمة. وبعد ذلك كان فتح بيرو مسألة بسيطة. ولما انتهت عملية الفتح هذه بدأ الأسبان أكبر عملية سلب طول الوقت، فاجتاحت عصابات قطاع الطرق من الاسبان القطر كله . ودمرت المعابد، وقد تركت هذه الاماكن بعد أن استولت على الأوانى وحلى الذهب، وعلى آثر ذلك، أصبح شعب بيرو فى حيرة من أمر نفسه. حيث أصبح بلا حكومة، كما أصبح الجيش بلا قادة. ونظراً لهذه الظروف لم يقم هذا الشعب بأيه مقاومة تذكر ضد الأسبان. وفى نوفمبر من عام ١٥٣٣م، اتخذ الأسبان من مدينة كوزوكو CUZCO عاصمة لهم.

وقد أجرى بيزارو محادثة مع اتاهولبا، وكان بيزارو قد أبدى استعداده فى اطلاق سراح الأمبراطور، إذا تجمع الشعب واحضروا فدية كبيرة من الذهب يرضى بها بيزارو. وكان اتاهولبا قد وقف فى مواجهة الحجرة التى كان سجينا بها، وكان طول هذه الحجرة ٢٢ قدما، وعرضها ١٧ قدما، وهى فى حجم حجرة معيشة كبيرة فى منزل فى هذه الأزمنة المعاصرة . وكان اتاهولبا قد وقف إلى اقصى مدى استطاع الوصول اليه، ورسم علامة على الحائط عند نهاية طوله من أعلى. فمن أجل أن يسترد حريته طلب من شعبه أن يملأ هذه الحجرة بالذهب حتى تلك العلامة وكان بيزارو قد وافق على هذا الشرط، وبدأ تدفق الثروة، وكان من الصعب تحديد قيمة هذه الكمية من الذهب بالتعبيرات النقدية المعاصرة، ولكن على الرغم من ذلك كان هناك تقدير معقول يمكن ان يستخدم فى تقدير الكمية التى تربو على ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى. ولم تمتلئ الحجرة بالذهب حتى علامة اتاهولبا. لأن الأسبانيين أنفسهم كانوا يقومون بنقل الذهب وتخزينه فى مكان آخر. وعندئذ، طلب اتاهولبا من بيزارو أن يحرره، وفى تلك الأثناء، اتهم بيزارو اتاهولبا بأنه أرسل رسائل سرية إلى مقاتلى الإنكا الذين كانوا معسكرين على مسافة مسيرة يومين من كاجاماركا يحثهم فيها على القيام بالثورة.

وقد أعتبر الأسبانيون اتاهولبا مذنباً طوال حياته. فعلى الفور، حكم بيزارو عليه بالحرق وهو موضوع فوق خازوق. ولكن استغاث امبراطور الإنكا ، وطلب العفو ولكن اخبره بيزارو أنه إذا استطاع أن يقبل أن يعمد كمسيحى، ففى هذه الحالة فانه لن يحرق كما لن تسل منه قطرة دم واحدة. وقد وافق اتاهولبا على أن يعمد مسيحيا، وقد

أحضر الأسبان قسا، وأجريت مراسم التنصير، وبعدها ، وعلى الفور اخرج رجال بيزارو اتاهوليا إلى وسط الميدان العام في كاجاماركا. فبدلا من أن يقوموا بحرقه أو استباحة دمه، قاموا بشنقه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

بحـــــر فيـــرازانو الشرقـــــى

بينما كان كورتيه يفتح مكسيكو من أجل أسبانيا *، كانت هناك سفينة أسبانية شراعية صغيرة فى جزء بعيد من العالم. وكانت هذه السفينة تدعى فيكتوريا التى كانت تبحث عن أعظم هدية، (تتمثل فى الطواف حول الكرة الأرضية).ففى يوم من شهر سبتمبر عام ١٥٢٢م، اتجه الشخص الوحيد الذى ظل على قيد الحياة فى أسطول ماجلان إلى أرض الوطن. أى إلى ميناء أسبانى. وكان هذا البحار قد نجح فى تحقيق الطواف بحرا حول العالم (الكرة الأرضية). فمن المعروف أن الطريق الذى اعتقد إنه يتجه غربا إلى الهند كان مثار جدل بين الأمم، لأنه كان طريقا صعباً ومجهولا. ومن المعروف ان السفينة فيكتوريا، استغرقت فى رحلتها حول العالم عامين، أثبتت خلالها أنه من الممكن الإبحار صوب الغرب إلى جزر التوابل، وفى ذلك الوقت كان البحث جاريا من أجل ايجاد طريق أقصر وأسهل يمر عبر الأرض الامريكية التى كانت عائقا، فهناك يوجد مضيق فى الشمال أبعد من المضيق الذى اكتشفه ماجلان واعتقد الجغرافيون أن السفن الأوربية يمكن أن تصل الى جزر التوابل فى مائة يوم.

وكانت الدولتان اللتان تتنافسان فى الريادة فى هذا المجال هما دولتا أسبانيا والبرتغال. وأضيف اليها دول ثالثة (من المحتمل ن تكون هذه الدولة هى فرنسا). ولم يكن النصر الذى حققته السفينة فيكتوريا نوعا من الأخبار التى يمكن ان تبقى فى حيز السرية. لكن بعد خمسة شهور، قام الملك فرانسيس الأول ملك فرنسا بإعداد وتجهيز بعثه من أجل القيام برحلة لكشف أقصر الطرق الذى يؤدى إلى جزر الهند. واختار فرانسيس الأول قائدا لرئاسة هذه البعثة، وهو من أسرة إيطالية كبيرة، كان لها

قبل قدوم الأسبان لم يعرف الهنود مطلقا الخيول أو البنادق، فبدونهم لم تستطع أسبانيا آن تفزع المكسيك وبيرو نهائيا، وتوجد صورة للحصان فى اليسار فى هذه اللوحة المكسيكية الهندية التى رسمت فى العشرينات من القرن ١٦، وتوضح كيف اندهش الرجال فى العالم الجديد، فمن الواجب رؤية هذا المخلوق الجديد الغريب (المؤلف).

إتصالاتها بفرنسا، وكان هذا القائد ملاحا ماهرا هو جيوفانى دا فيرازانو* Giovanni de Verrazano وكان ملك فرنسا قد جهز أو أعد أربع سفن، ولكن بسبب العواصف وبعض المشاكل الأخرى،، حرمته هذه المشاكل من ثلاث سفن، ولكن فى عام ١٥٢٤م أبحر فيرازانو على إحدى سفنه المتبقية، وهى السفينة التى تسمى دوفين Dauphine فى سريه تامة، من جزيرة غير مسكونة، تقع بالقرب من ماديرا. وكانت هذه السفينة تحمل على ظهرها الطاقم المكون من ٥٠ بحارا. بالإضافة الى المؤن التى تكفى لمدة ثمانية شهور. وبعد سبعة أسابيع، رأى فيرازانو الأرض الجديدة التى لم تر من قبل من جانب أى شخص قديما أو حديثاً. وقد وصفها بعد ذلك فى خطاب أرسله إلى الملك فرانسيس.

وكان فيرازانو قد رأى ساحل كارولينا الواقعة جنوب رأس الخوف Cape fear وكتب يقول"كان قتدى الوصول الى كاثى Cathay ولكننى لم أتوقع أن أجد مانعا كالأرض الجديدة، واعتقدت أنها لم تكن تخلو من بعض المضايق التى ننفذ منها إلى المحيط الشرقى. وقد أبحر فيرازانو بجوار الشاطىء صوب الجنوب لمسافة ٢٠٠ ميل، للبحث عن "مضيق" ولكن الخوف منعه من الاقتراب من المقاطعة الأسبانية. لهذا قفل راجعا، ومع ذلك فقد ذهب الرجال على طول الشاطئ والتقوا بجمهرة من الهنود الذين أحضروا الطعام، وبعد ذلك، رسوا فى خليج ورأى فيرازانو نيرانا كبيرة مشتعلة على الشاطئ الذى اتخذه ليكون علامات للمدن الكبيرة. وجعلت الأمواج العنيفة الرسو عملا خطيرا، ولكن فى الصباح التالى تطوع بحار ليقوم بالسباحة حتى الوصول الى الشاطئ، مؤملا فى الإبحار مع الهنود وكان على ظهره حقيبه بها عقود (منظومة).

وفى تلك الأثناء، كان الماء عنيفا اكثر مما توقع هذا البحار. فكان على وشك الغرق. ولكن لما قذفته الأمواج على الشاطئ ورقد هناك، وهو فى حاله اعياء شديد.

---

* اكتشف جيوفانى دا فيرازانو الموظف لحساب الملك فرانسيس الاول ملك فرنسا ساحل امريكا الشمالية. عام ١٥٢٤ م، باستخدام سفينته "الدوفين" فهو الأوربى الأول الذى عرف بكشفه لخليج نيويورك ونهر هدسون(المؤلف)

جرى إليه بعض الهنود، وهم يصرخون فى ذعر وحملوه إلى النار. بعد أن نزعوا ملابسه، وكان البحارة الفرنسيين يتابعون هذا المشهد عن كثب من فوق السفينة "دوفين" وكانوا متأكدين من أن زميلهم سيشوى وسيؤكل، ولكن حدث عكس ماتوقعوه. فقد قام الهنود بتصرفات غاية فى الروعة كانت موضع إعجاب وتقدير من جانب زملائه. فقد تفحص الهنود جلد هذا البحار ابتداء من رأسه وحتى قدميه. ولما فاق من غيبوبته وانتعش تركوه وحال سبيله. وبعد ذلك أبحر فيرازانو فى اتجاه الشمال الشرقى. بحيث مر على طول شواطئ كارولينا الخارجية.

ووصف فيرازانو الشواطئ بأنها كانت عبارة عن برازخ تقع على مسافة ميل من الجانب الآخر، ويبلغ طولها ٢٠٠ ميل ، وفيما وراء هذه البرازخ، ومن على ظهر السفينة يمكن رؤية البحر الشرقى، وفى الواقع كانت هذه المنطقة هى منطقة باميلكوسوندPamilico Sound التى تفصل الهتراس عن البحر الأصلى لكارورلينا الشمالية. وأضاف فيرازانو بسرور قائلا: "هذا هو البحر بدون شك، حيث أن حدوده تصل إلى نهايات الهند والصين. وأبحرت البعثة على طول هذه البرازخ بأمل ايجاد بعض المضايق أو أى جبل تنتهى عنده الأرض حتى تتمكن من الأختراق والوصول الى شواطىء الصين السعيدة.

وتوغل الفرنسيون على الشاطئ بعيداً عن فرجينيا، والميرالاند، وهناك أبدى لهم الهنود عطفا كبيرا، ولكنهم قابلوا هذا العطف بدناءه وخسه اذ خططوا لخطف ولد صغير منهم، والسؤال هنا لماذا قاموا (الفرنسيون) بخطف ذلك الطفل؟ والجواب، ان هذا السؤال لم يفسر بعد، وبعد ذلك واصل الفرنسيون مرة ثانية اكتشاف الأرض المجاورة ديلاوير Delawere وفى تلك الاثناء رأوا هنديا قادما نحوهم وبيده عصا مشتعلة. فمن المعروف أن النار عند الهنود ضرورية، ومن الصعب جدا اشعالها. والهندى عندما يقدمها للغريب فإن ذلك، يدل على حسن الضيافة. وأخيرا ، وصلت البعثة إلى موقع مناسب جداً. حيث يلتقى النهر الكبير بالبحر. وقد القى فيرازانو بمراسيه مرة ثانية. وأرسل قاربا صغيرا من خلال قناة ضيقة تقع بين تلين. حيث كان يوجد فى الداخل خليج تمر من خلاله المراكب العديدة ذهابا وإيابا.

وكان الفرنسيون على صواب عندما اعتبروه واحداً من أجمل الموانيء فى العالم، .
وبعد مرور قرن من الزمن، أنشأ الأوربيون فى هذا المكان مدينة، وبسبب هذا الميناء. اتسعت المدينة – وتطورت – وأصبحت مدينة عظيمة، وليس من الممكن أن تكون دهشة فيرازانو وبعثته الصغيرة، وهم يحملون على هذا الشاطئ المقفر هيئته – بعد أربعة قرن من الزمن – بحيث أصبحت عابرات المحيطات راسية فى هذا الميناء نفسه، تحت ظلال ناطحات سحاب نيويورك، وعندما بدأ الطقس رديئا أسرع الرجال بالعودة الى سفينتهم، وأستأنف فيرازانو وإبحاره بجوار الساحل ورأى جزيرة البلوك Block Island ورأس الكود cape cod ووقف فى الميناء الجديد (ميناء الجزيرة) وكان الوطنيون على علاقة صداقة بالبحارة. فكانوا يتوقون فضولا لمعرفة أى شئ يخص الرجل الأبيض. واستغل فيرازانو الأرض والناس، ومكث هناك أسبوعين وبعد ذلك. واصلت السفينة "دوفين" رحلتها نحو الشرق مارة بأثنتين وثلاثون جزيرة تقع جميعها بعيداً عن ساحل المين Maine، وجاوزت البعثة بعد ذلك، هذه الجزر إلى منطقة صيد أسماك الكود cod، الواقعة على الشاطئ الكبير للنيوفوندلاندNewfound land ومن هناك إتخذ فيرازانو طريقه فى البحر متوجها الى أرض الوطن. وقد وصل عابرا الى دييبDieppe فى فرنسا فى مطلع يوليو. وقد إعتقد فيرازانو خطأ من أن باميلكو سوند هو البحر الشرقى، الذى بلا شك يحازى الصين، وهذا الخطأ أمكن فهمه فى الوقت الذى عاش فيه فيرازانو، فقد زاد فيرازانو من حيرة أوربا فيما يختص بأمريكا، ومع ذلك كانت رحلته هذه على جانب كبير من الأهمية فى نواح أخرى، فقد استطاع فيرازانو *، أن يدعى أنه اكتشف أكثر من ٢٠٠٠ ميل على طول ساحل أمريكا الشمالية. ومن المرجح أن الجغرافيين علموا منه أن المسافة بين جنوب كارولينا ونيوفوندلاند. لم تمتلئ بالبحار والجزر، مثلما كان مفروضا. ولكن بامتداد مطرد لشاطئ

---

* من المحتمل ان يكون بحارة فيرازانو فى فرچينيا قد التقوا بالهنود (المؤلف).

القارة، فإن المعرفة الجغرافية فى تلك الأيام لم تنتشر بسهولة من وطن لآخر. فقد حجبت فرنسا أسراراً كشفها عن أسبانيا، وأخفت أسبانيا ماالكتشفه ملاحوها عن البرتغال ، ومع ذلك فقد واصل مكتشفون آخرون البحث عن المضايق التى فشل فيرازانو فى كشفها.

ففى عام ١٥٢٥م، أبحر استيڤاو جوميز Este vao Gomez من نيوفوندلاند إلى فلوريدا، باحثا عن طريق يوصل إلى جزر الهند. وذلك خدمة لتشارلس الخامس Charles V الأسبانى، وحتى عام ١٥٣٦م كان سبستيان كابوت لم يزل يعرف ماذا كانت هى قارة واحدة أو أكثر، تمتد من نهر المسيسبى وحتى نيوفوندلاند. وهكذا فلم تبرهن رحلة فيرازانو على عدم وجود طريق مائى يمر من العالم الجديد الى جزر الهند. مع أنه أبحر على طول الشاطئ الشرقى لأمريكا الشماليه ومن المحتمل أن يكون هو الأوربى الأول الذى اكتشف خليج نيويورك.

عبـــور الأرض لأول مـــرة

عندما تحدث الأسبانيون عن كشف ثروة طائلة مثل الثروة التى عثر عليها كورتى حديثا بالصدفة فىمكسيكو *، فهم غالبا مايذكرون الأرض المجهولة، التى أسماها بونس دى ليون Ponce de leon فلوريدا. وكان بانفيلودى نارفيز Panfilo de Narvaez من بين هؤلاء الذين استمعوا الى الكلام المستمر عن الذهب، ومنذ وقت مبكر . كان هذا الرجل قد خدم كضابط فى فتح كوبا. وبعد ذلك الوقت عاد الى أسبانيا، وكان قد قارب الخمسين من العمر، ونذكر بسالته بفخر كمحارب هندى رغب فى قهر تلك الأرض الواقعة الى الشمال من مكسيكو. ولكنه حذر من أن ذلك لم يكن عملا سهلا يمكن القيام به، لأن الهنود كانوا من قاذفى السهام القاتلةومع ذلك نجده يبتسم فقط ويقول "أن الأقواس والسهام* ، لم تكن بنادق".

وفى عام ١٥٢٨م، قاد نارفيز أسطولا ، وكان على ظهره قوة مكونه من ٤٠٠ رجل، واتجه الى فلوريدا، ولكن إنتهت هذه المغامرة بكارثه تامة، فبعد أن وصل الى الشاطئ الواقع فى الجانب الغربى من فلوريدا، أى بالقرب من موقع تامبا Tampa فقد نارفيز سفنه. وبعد ذلك، سار مسافة طويلة فى الداخل أى الى الشمال والغرب، ومع ذلك فقد فشل أيضا فى الحصول على الذهب ، الذى كان قد وجده فى مكسيكو. واجتاز الرجال فى هذه المناطق القفرة مصاعب لا يمكن تصديقها، وبعد شهور من الرحلة تناقص عدد أفراد البعثة إلى ٢٤٠ شخصا، بسبب المجاعة والمرض والهجمات

---

* من المحتمل أن يكون أول رجل أبيض رأى الجاموسة فى سهول امريكا الشمالية هو كابزا دى فاكا Cabeza de Vaca وقد عرف الاوربيون الآخرون هذا الحيوان الضخم الأشعث الشعر من صور كتلك الصور التى رسمت عام ١٥٥٨م.

* وجد سيفان ضخمان بمقابض فى تكساس، وكانا يستخدمان بمعرفه الأسبان ووجد على مقابضهما كتابات تقول "لاتسحبنى دون سبب، لاتغمدنى دون تكريم".

كان الركاب الصلب جزء من الدرع الذى يرتديه الفارس الأسبانى (المؤلف).

الهندية المعادية. وقد كتب أحد الأشخاص فى هذا الصدد يقول "لم تكن أحسن الدروع الى كانت لدينا بذى فائدة، فقد اخترقت سهام الهنود كثيرا من السترات المدرعة، وقد أقسم البعض الآخر من رجالنا إنه قد رأى سهما واحدا قد اخترق شجرتين صغيرتين من أشجار البلوط ، التى تنمو مجاورة بعضها البعض، وكان كل منها فى سمك رجل لرجل، ويضيف فى قوله إنه نفسه. قد رأى واحدا من هذه السهام يغوص مسافة ست بوصات فى جذع شجرة الجوز.

وفى هذه الأثناء، كانت بنية الهنود مثيرة للدهشة، فكانوا نحفاء ، أقوياء ورشقاء، وكانت أقواسهم فى سمك ذراع الرجل. بحيث يستطيعون بها إصابة الهدف بدقة، فلم يخطئوا الهدف قط حتى من على مسافة ٢٠٠ خطوة. وأخيرا ، وفى محاولة يائسة، للعودة الى المدينة ، بنى الأسبانيون خمسة مراكب من المواد التى استطاعوا الحصول عليها، وكانت الخطة تتمثل فى المسير بمحاذاة الساحل اى حول الخليج هابطين الى بانكو Panuco ومكسيكو، وكان هذا يعنى التجديف فى مراكب مكشوفة، وفى مياه الخليج العنيفة، ولمسافة مئات الأميال و كان كل هذا يعرض المراكب الى مواجهة النكبات الواحدة تلو الأخرى.وفى النهاية، رست جماعة نارفيز جميعها فى فلوريدا. وكان قد ظل من أفرادها على قيد الحياة أربعة رجال فقط، وكان واحد من هؤلاء نبيل أسبانى هو الفارانانيز كابزا* Alvar Nunez Cabeza، الذى كان يشغل منصب أمين صندوق البعثة، فالذى حدث بالنسبة له فى الثمانى سنوات التالية، إنه كان من أعظم المغامرين المدهشين فى كل قصة أمريكا وكان على ظهر كل مركب من المراكب الخمسة ، مابين ٤٠، ٥٠ رجلاً.وقد سارت هذه المراكب بجوار الساحل فى اتجاه الغرب حتى مسافة بعيدة إلى مصب نهر ريو دل اسبيريتو سانتو Rio del Espiritu Santo أو نهر المسيسبى، وهناك، تفرقوا بسبب هبوب عاصفة أدت الى ارتطام ثلاثة منها بالأرض، وفقد جميع من عليها ، ومع ذلك فقد جدف الرجال

* من المحتمل أن الأسبان، الذين كانوا بصحبة كابزا . كانوا مرتدين سترات مجهزة بسيف وآلة وخوذة (المؤلف).

الذين كانوا فى مركب كابزا حتى القوا بمراسيهم على شاطئ جزيرة بالقرب من موقع جالفستون Galveston فى تكساس، وهناك ألحقوا بالأشخاص الذين ظلوا على قيد الحياة، والذين كانوا على ظهر المركب الخامس التى تحطمت أيضا، وفى هذه المناطق عاش الأسبان على الأصداف السميكة، وجذور النباتات المائية التى كان يقدمها لهم اصدقاؤهم من الهنود، وبحلول فصل الربيع كان عدد الذين ظلوا على قيد الحياة ١٥ رجلا.

واعتقد الهنود بأن الأسبان، كانوا سحرة أو نوعا من أنواع الآلهة، وإنه فى إمكانهم معالجة المرض، وكتب كابزا دى فاكا يقول "رغب هؤلاء الهنود فى أن يجعلونا أطباء بدون اختبارات أو شهادات، وحاولوا ان يعالجوا أنفسهم بتنفس واحد إلى الآخر، ومع هذا التنفس بسط الأيدى ، وكانوا يأملون فى ذلك جعل أنفسهم فى حالة جيدة، أو كانوا يأملون فى الشفاء، وطلبوا منا أن نفعل هذا لهم، فضحكنا وقلنا أن هذا غباء، لأننا لم نعرف شيئا عن فن الشفاء، ولكنهم اصروا ومنعوا الطعام عنا، حتى فعلنا ماطلبوا منا، وهكذا أصبح كابزا دى فاكا ورفاقه رجال أطباء للهنود وقد حاولوا بما يعرفونه من الطب وبالأيمان الكامل للوطنيين أن يحققوا نتائج طبية، وبعد ذلك انفصل الأربعة أشخاص عن بعضهم، وتجول كابزا بمفرده فى مساحات واسعة فى جنوب غرب أمريكا، متنقلا من قبيلة هندية إلى أخرى، وصادقهم بطريقة ودية، بحيث بكت قبائل كثيرة عندما تركها.

وظل كابزا يتحرك فى اتجاه الغرب، ومؤملا فى أنه فى يوم ما سيصل الى البحر، وفى غرب نهر سابين The sabine R الواقع فى تكساس، التقى كابزا مرة ثانية بالثلاثة الذين ظلوا على قيد الحياة، والتابعين لجماعة نافيز، وكان أحدهم عبدا زنجيا مراكشيا يدعى استيبانكو Estebanco ، وقد تجول الأربعة معا فعبروا تكساس حيث شاهدوا الجاموسة البرية، واندهشوا لرؤيتها ، وكانوا هم أول من رأى قريتين من قرى الهنود الحمر، هما قرية هوبى Hopi وقرية زونى Zuni الواقعتين فى مكسيكو الجديدة، وفى الأريزونا، وعندما كانوا على مسافة مائة ميل من خليج كاليفورنيا، لاحظوا ان واحدا من الهنود الذين التقوا بهم كانت تتدلى حول رقبته حلية،

كانت عبارة عن (ابزيم)، لحزام سيفه، وعند رؤيتها اندهش كابزا دى فاكا لدرجة انه لم يستطع الكلام، فكانت هذه العروة تعنى شيئا واحدا - الأسبانيين - وفى النهاية، وبعد كل هذه المتاعب التى تحملها كابزا لمدة سبع سنوات - والتى كان من الواضح إنه تجوال لانهاية له - قطع كابزا خلالها أكثر من ثلثى المسافة عبر الولايات المتحدة ، وهاهى علامة على وجود مواطنيه

وقد علم الرجال الأربعة أن شاطئ البحر يقع نحو الجنوب، فسارعوا بالمسير نحو هذا الإتجاه، ومرة ثانية انفصلوا، وعندئذ، جاهد كابزادى فاكاواستيبانكو معا. وبعد ذلك بعدة أيام، توقف أربعة رجال من المستعمرة الأسبانية (كلياكان) Culiacan الواقعة بالقرب من خليج كاليفورنيا فى الطريق، وبدت عليهما الدهشة، إذ ظهر أمامهما، وفى صحبة مجموعة من الهنود رجل أبيض يتحدث الأسبانية، وزنجى وكأن ظهورهما جاء فجأة، وبعد ذلك أعلن كابزا من يكون، فأعلن هذا الشخص عن نفسه. وقد عانق الأسبان كابزا دى فاكا الذى كان قد فقد الأمل من مدة طويلة فى رؤية وطنه مرة ثانية، وقد بكى من الفرح وواصل المسير حتى كوليكان .Quliacan ومن هناك واصل السفر حتى مدينة مكسيكو، وقد كشفت اسفار كابزادى فاكا إلى راسمى الخرائط ولأول مرة بأن هناك قطراً فسيحاً يقع إلى الشمال من مكسيكو، بل واكثر اتساعا عما أدركه أى إنسان، وقد حكى عن المدن والقرى الهندية التى رآها فى الوديان، والتى أرسل آخرون إليها حيث اتجهوا نحو الشمال من مدينة مكسيكو وذلك لجمع الذهب.

مـــدن الذهـــب الســـبع

وعندما عرفت قصة كابزا دى فاكا فى مكسيكو وأسبانيا، وأصبح للرقم سبعة معنى سحريا، فقد أعاد الأسبانيون الى الذاكرة أسطورة قديمة عن هذا العدد وقد زاد انفعالهم به، كما لو كانت هذه حقيقة عظيمة قد تكشفت لهم. ولكنها كانت قصة قديمة تقول : عبر سكان من شمال افريقيا مضيق جبل طارق، واجتاحوا البرتغال وأسبانيا. وفى تلك الأثناء، هرب سبعة أساقفة برتغاليون أمام الغزاة، وذهبوا الى مدينة أوبورتو Operto، وهناك ، صعدوا الى جزيرة كبيرة افترض لها أن تتحرك عبر المحيط الأطلسى ، سميت هذه الجزيرة باسم انتليا Antilia. وعلى هذه الجزيرة الغنية - لدرجة تفوق الخيال - أسس كل أسقف مدينة، وهكذا فإن الأسطورة ذهبت، وكل مدينة من المدن السبع قد تطورت الى مدن مزدهرة، وفى مكسيكو أخبر عبد هندى عن قصة تحوى أسطورة السبعة الأساقفة، فقد قال والده الهندى، لقد ذهب مرة فى رحلة طويلة الى الشمال، وبعد أربعين يوما من السفر، وصل الى قطر حيث وجد هناك سبع مدن كبيرة جميعها غنية بالذهب والفضة. وقد عاد الى وطنه، وهو يحمل حملا ثقيلا من الثروة.

وفى تلك الأثناء، وضع الأسبانيون هاتين القصتين معا. فلم تكن المدن السبع الخاصة بالأساقفة واقعة على جزيرة ، ولكن كانت فى مكان ما على الأرض فى شمال مكسيكو، وقد رغب الكثير من المغامرين فى الذهاب للبحث عنها، وقبل أن يرسل فاتح على رأس جيش كبير طلب الجنرال انتونيودى ماندوزا، من أحد الرهبان الفرنسيسكان - وهو أيطالى الجنسية - ويعمل فى خدمة أسبانيا، ويدعى فراى ماركوس دى نيزا Fray Marcos ed Niza أن يتولى إرشاد البعثة.

وفى عام ١٥٣٩ بدأ مهمته فى كوليكان، فقد ذهب فراى ماركوس فى اتجاه الشمال الى وادى نهر سونورا Sonora R. الواقع فى الركن الشمالى الغربى من مكسيكو، وعندئذ، عبر الأريزونا التى نعرفها اليوم بهذا الإسم. وعلى طول الطريق علم فراى من الهنود، إنه يوجد فى الواقع سبع مدن كانت توجد فى قطر ناء يسمى كيبولا

Cibola، وقد بنيت منازلها من الحجر، وكان البعض منها يصل ارتفاعه مابين ٤ . ٥ طوابق مداخلها واطارات شبابيكها بالفيروز بدرجة كبيرة، وكان أيضا قد أخبر عن كيبولا Cibola بأنها تقع في الشمال على مسيرة ثلاثين يوما . ويوصل هذا الطريق إلى مكسيكو الجديدة. وعندما كان فراى على مسافة أميال قليلة من سيبولا تسلق تلاً وألقى بنظره عبر التلال، وكتب فراى ماركوس يقول "رأيت على خط الأفق القائم، ومن خلال الزرقة والشمس المشرقة مايشبه مدينة نبيلة، وأخيرا، رأى المدينة رقم (١) من المدن السبع البعيدة" فالمدينة من المكان الذى رأيتها منه تبدو ممتازة" وأضاف يقول "بالتاكيد فإن هذه المدينة هى أجمل مدينة رأيتها فى كل هذه الأجزاء، فالمنازل بنيت من الأحجار، بالاضافة الى إننى أقر بأنها هى أكبر من مدينة مكسيكو، ولكن فراى لم يحكم حكما جيدا، فقد خدعته المسافة وتخيله الملئ بالشوق. وفى الواقع، فإن الذى رآه هو قريه زيونس Zunis وهى إحدى قرى الهنود الكبيرة، والتى تقع على منحدر، وبنيت حوائطها من الطوب النى، أو من الطين المحروق فى الشمس، وثبتت معا بأسمنت من الرماد، ووجد فى داخل هذه القرية مائتان من الأبنية البدائية، وهذه الأبنية تمثل محل سكن لنحو ألفين من الناس. وقد انتشر تقرير فراى ماركوس فى مكسيكو مثل الإعصار، ومرة ثانية، بدأ الأسبانيون يحلمون بالذهب والمجد، واعتقد الحاكم مندوزا Mendoza العاقل القوى إنه سيتوغل فى الداخل كى يصل الى مكسيكو أخرى وبيرو أخرى وربما أكثر.

وقد قرر أن يرسل بعثة على وجه السرعة بقدر الإمكان، واختار لقيادتها واحدا من أعظم الرجال فى حكومته، وهو نبيل يرعى فرانسسكو فاسيكز دى كورونادو Francisco Vasquez de Coronado وفى احتفال مفعم بالحيوية، قاد كورونادو عام ١٥٤٠م بعثة الى مدينة مكسيكو، التى كانت مسلحة تسليحا جيدا، بل ومجهزة تجهيزا كبيرا، فكانت هذه البعثة تضم ٢٢٥ رجلا، كانوا يمتطون الخيول، وكانت غالبيتهم من الشباب الذين يحملون الرماح الطويلة، والمزينة بالحرير الناعم، ذو اللون الأزرق البراق والأحمر الذهبى ، وكان درع كل منهم مصقولا بحيث يبرق فى الشمس وقد لصقت شارات على خوذة الفرسان، الذين كان بصحبتهم ١٠٠٠ هندى

يقودون أمامهم قطعانا من الماشية والخنازير، وذلك لاستخدام لحومها فى الطعام. وكان . الجميع قد اتخذوا طريقهم الى المستوطنه الأسبانية التى تسمى كيوليكانCuliacan وقبل أن يكملوا المرحلة الأولى من الرحلة بدأ الشباب يتذمرون من متاعب السفر فى هذا القطر، وبمرور الأسابيع أصبحت ملابسهم الجميلة مبقعة ومتربة، وقد انهكت الدروع أصحابها بسبب الطقس الذى بدا دافئا، وبعد شهرين من مغادرتهم لمدينة مكسيكو، وصلوا الى كيوليكان، وهناك قرر كورونادو أن يأخذ جزءا فقط من جيشه ويتقدم به إلى الأمام، تاركا من خلفه القوة المتبقية، ومعها تعليمات بأن تتبعه فى خلال أسابيع قليلة، فكان قد بدأ رحلته على رأس خمسين فارسا وعدد من جند المشاة، وواصل كورونادو المسير صوب الشمال، وعبر وبعثته مايعرف الأن بحدود الولايات المتحدة، ، ووصل الى أرض صحراوية تقع فى أريزونا، وعندئذ، وصلت البعثة الى قرية هندية، تقع بالقرب من مدينة جالوب الحديثة المعروفة باسم نيومكسيكو، وسار الجميع فى تلك الوقت أياما قليلة ابتداء من المدينة الأولى الكبيرة، والتى تقع فى مقاطعة كيبولا الخرافية. وفى الواقع هى قرية زيونس الهندية التى شاهدها فراى ماركوس من على قمة تل يقع بعيدا عنها.

وتوقف الجيش الصغير لمدة أيام قليلة أيضا للراحة، جامعا أثنائها الطعام الذى كان مخزنا فى القرية، وعرف الهنود فى تلك الأثناء كل شئ جيد عن القوة المخيفة للبنادق وللأقواس والنشاب. ومع ذلك فإن رئيس القرية وقف بشجاعة مصحوبة باليأس أمام جماعة الغزاة البيض، ومعه عصا رسم بها خطا على الأرض. وقد حذر وى سوتو بعدم التقدم خطوة واحدة فيما وراء ذلك الخط، ولكن بغرور قام أحد الأسبان بمهمز حصانه ليتقدم فى اتجاه الخط الممنوع عبوره، ولكن الحصان تقهقر الى الخلف. وبدا وكأن لديه إحساسا أكثر من راكبه، وعندئذ أصابه سهم فأرداه قتيلاً، وفى نفس الوقت أصاب سهم آخر جندياً أسبانياً، لذلك قام الأسبانيون بمهاجمة الهنود الآخرين، وانتهى كل شئ بعد دقائق قليلة، ولم يكسب الرجال البيض فقط المناوشة؟ بما فيها من إيجابيات، بل شنقوا كل رجل وامرأة وطفل فى القرية.

ومع ذلك فقد حارب الهنود، حتى عندما عرفوا إنه لم يكن لديهم فرصة لتحقيق

النصر، فقد أصطادوا حيات الأحراش ووضعوها فى أقفاص خشبية، وبعد ذلك طعن الهنود هذه الأقفاص بسهامهم، فأزعجوا بذلك الثعابين التى تقوم بعض رؤوس السهام فتلوثها بالسم، ثم يترك الهنود السم يجف على سهامهم، بعد ذلك أطلقوا هذه السهام على الأسبانيين. وفى النهاية، عاد كورونادو ورجاله الى المكان الذى كان فراى ماركوس قد وصفه بأنه مدينه كبيرة، تقع فى كيبولا ، فما كان هذا الإخيبة أمل مدمرة بالنسبة لهم، فبدلاً من أن يجدوا ابنيه جميلة طائلة كالتى وجدوهافى مكسيكو نفسها، وجدوا فقط قرية هندية مسورة بالطين، وكان كورونادو متألما وغاضبا، كما كان رجال جيشه من الشباب ثائرين على فراى ماركوس، حيث أن هذا الراهب قرر إنه ليس من الأمان أن يبقى معهم، واختفى بهدوء ثم عاد بعد ذلك.

وبقى كورونادو فى هذه القرية الهندية، ينتظر الجزء الرئيسى من بقية جيشه القادم من كيوليكان. وفى الوقت نفسه، أرسل الرجال فى جماعات صغيرة ليكتشفوا هذا القطر. فماذا كان عن استكشاف كورنادو؟ لقد علم أن هذا القطر لم يكن مشجعا، فقد أرسل مجموعة تلو الأخرى، ولكن دون جدوى، وكل ماحققته هذه المجموعات الكشفية أنها شاهدت كثيرا من القرى الهندية، بالاضافة الى مشاهدتها للفخار والخزف والقماش المزركش. ولم تحقق هذه البعثات اى شئ يستحق الذكر للإسبان طوال هذه الرحلة، فلم توجد مدن ولاذهب ، ولامجوهرات ولافضة.

ومع ذلك فلم يتخل كورونادو عن مهمته. فعندما وصل القسم الرئيسى من جيشه إلى القرية الهندية ، أخبر ضباطه ان يحتفظوا بها، بينما بدأ هو رحلته مع جماعة أخرى من المستكشفين، فاتجه نحو الشرق والجنوب، وتجول أياما كثيرة فيما يعرف فى عصرنا بسهول تكساس، وقد واصل كورنادو بحثه بإصرار يوما بعد يوم، ولكن الأرض كانت خيالية وشاسعة، وكلما توغل كلما أصبح العمل ميئوس منه أكثر، وكان الرجال قد فقدوا الأمل، ولولا عناد كورونادو نفسه ، لكان فى إمكانه العودة ، ولكن كان هندى قد حضر مع الجيش القادم من كيبولا، وأخبره بقصص جديدة ومدهشة عن وجود ثروات كبيرة أمامه، وقد أطلق الأسبانيون على هذا الهندى "التركى" لأنه كان يرتدى غطاء غلى رأسه يشبه العمامه الحمراء، وقال هذا الهندى أن المدن السبع تقع فى وطن قومه، وأن

هذا الوطن يسمى كويڤيرا Quivira. وكان يقع على مسافة بعيدة ، ويحتاج الى . مسيرة أسابيع كثيرة. وكان حاكم الكويڤيرا هذا ، يغفو تحت شجرة بعد الظهر، وكان يعلق فى هذه الشجرة مئات الأجراس الذهبية الصغيرة تعمل على تهدئتة لينام لأنها تحدث رنينا يندمج مع النسيم. وقال هذا التركى ان عامة الناس فى كويڤيرا لديهم كميات من الذهب، لهذا فهم يأكلون فى أوعية ذهبية، ويشربون فى قدور ذهبية أيضا. وبذلك تكون أمال كورونادو قد انتعشت ، عندما يستمع الى هذه القصص المدهشة ، لذلك قرر أن يدع التركى يقوده الى الكويڤيرا. وفى عام ١٥٤١م سار كورونادو عدة أسابيع ويرفقته هذا التركى، فمرا من خلال برارى عشبية واسعة وعبرا مجارى مائية لاتحصى، كما مرا من خلال قرى هندية متجهين نحو الشمال والشرق، وتعرف وسط هذه المنطقة فى وقتنا الحاضر بالولايات المتحدة.

ولم ير الأسبان فى أى مكان مايحقق حلمهم، ولم يروا أيضا أى اشارة تدل على ذلك، وأخيرا وقفوا وسألوا المواطنين عن مكان كويڤيرا. وعرفوا أنها تقع على مسافة ٤٠ يوما من المسير نحو الشمال، وكان كورونادو، قد اختار ٣٠ من أحسن رجاله وواصل بهم السفر الى كويڤيرا، وبهذه المجموعة الصغيرة استأنف الرحلة، وفى تلك الأثناء، شك فى أن التركى كان قد كذب عليه، ومرة ثانية أخذ، كورونادو معه التركى، ولكن فى هذه المرة كان التركى سجينا، وفى النهاية ، وبعد عبور أوكلاهوما متجها الى كنساس، واصل المسير نحو الشرق، فوصل الأسبانيون الى المكان الذى أسماه الهنود كويڤيرا . وفى الوقت الحاضر لايعرف اى شخص موقعها على وجه التحديد. ويؤكد ذلك شيئا واحدا يعنى أنه لم يكن للكويڤيرا وجود، فكانت عبارة عن بقعة فى سهول كثيفة تعوى الذئاب فيها حول الأكواخ المتناثرة والمسقوفة بالقش. ووقفت البعثة فى هذا المكان القحل الذى تهب عليه الرياح من فوق انحناء خط الأفق المكشوف الواقع فى وسط أمريكا. وبعد ان سارت البعثة مئات كثيرة من الأميال، عرف كورونادو ورجاله فى النهاية، ماذا كان ينبغى عليهم آن يعرفوه قبل ذلك بشهور كثيرة إنهم خدعوا. وفى النهاية عرف كورونادو أن التركى كذب عليهم منذ البداية، وقد رغب شعب التركى من الهنود الحمر فى تدميرهم هؤلاء الغزاة البيض الذين سلبوهم طعامهم، وقتلوا الكثير

منهم، ولقد فسر التركى هذا بقوله إنه وأشقاءه من رجال القبائل لم يكن يحدوهم الأمل فى طرد الرجال البيض خارج وطنهم عن طريق محاربتهم، لذلك لجئوا الى فكرة استغلال جشع الأسبانيين فى الذهب، ومن أجل ذلك قادوهم مسافات طويلة فى رحلة شاقة، حتى ضعفت خيولهم، وتعرضوا فى وسط هذه السهول القاحلة للجوع، وعلى الفور، صدرت الأوامر من كورونادو الى إثنين من الأسبان بسحب التركى بعيدا بعد أن يلفا حبلا حول عنقه، ويقوما بخنقه حتى الموت، ولكن هذا لم يرض الأسبان، ومع ذلك فلم يغضب منهم الا قليل، وفى عام ١٥٤٢م، عاد كورونادو، ومعه ١٠٠ من رجاله الى مقره فى مكسيكو، وكان محطما، بل خاوى الوفاض بعد رحلة دامت أكثر من عامين قضاهما فى البحث عن الذهب فى امريكا، بينما ترك بعضا من رجاله ينتشرون بحيث عادوا من طرق متفرقة، وانتهت بذلك واحدة من إطول المسيرات فى التاريخ فبلغت المسافة من مدينه مكسيكو أكثر من ٣٠٠٠ ميل فى داخل امريكا.

الطــــريق إلــــى جــــزر الهــــند

عندما عاد كابزا دى فاكا Cabeza de Vaca الى وطنه أسبانيا، تلقى دعوة لزيارة هيرناندو دى سوتو، الذى خدم تحت قيادة بيزارو فى بيرو، وهو الذى كان واحدا من أغنى الرجال فى أسبانيا، وذلك بسبب العائدات التى حصل عليها من تلك المغامرات. فكان غنيا لدرجة أن الملك الأسبان كان فى الواقع يقترض منه المال. وكان لدى دى سوتو سبب خاص فى الرغبة فى التحدث مع كابزا دى فاكا. وقبل ثلاثة شهور على وجه التحديد، حصل دى سوتو من الملك على حق امتياز يخول له اكتشاف مساحة ضخمة من أرض أمريكا الشمالية التى كانت تسمى فى ذلك الوقت فلوريدا، فكانت تشتمل على كل الجزء الشرقى الذى يعرف فى الوقت الحاضر بالولايات المتحدة. وكان عليه أن يؤسس هناك مستعمرة خاصة به، وسأل دى سوتو ، كابزا دى فاكا، سؤالا محددا عن فلوريدا، وكان رد دى سوتو قد شرح لكابزا بأنه خطط لإرسال بعثة كبيرة، ودعاه للذهاب معه ، ولكن كابزا رفض هذا المطلب بأدب.

وفى تلك الأثناء، شعر دى سوتو بكل تأكيد بأن ضيفه كابزا كان متحفظا، ومن المؤكد إنه كان لديه خطط خاصة تتعلق بفلوريدا. ومن المحتمل جدا ، ان قصة المدن السبع كانت حقيقة واقعة. حيث تقول الأسطورة القديمة بأن المدن السبع كانت فى مكان ما على ساحل جزيرة فى البحر أو فى مضيق أو على شواطئ نهر كبير، يربط خليج المكسيك بالمحيط الهادى. واعتقد دى سوتو أنه سيجد فى فلوريدا، وفى مكان ما هذا الممر المائى ، وإنه سيكتشف أرضا أخرى على جانب من الثراء شأنه فى ذلك شأن أرض الإنكا والإزتكس.

وكان دى سوتو متأكدا من هذا لدرجة إنه كان لديه الرغبة فى المراهنة بأمواله من أجلها. وكان ملك أسبانيا لديه الرغبة التامة فى أن يدعه يفعل ذلك، وقضى دى سوتو عامين من أجل الحصول على سفنه اللازمة لذلك. وقد تمكن دى سوتو فى نهاية الأمر من إعداد بعثة وتجهيزها تجهيزا جيدا، بحيث بلغ عدد أفرادها ٦٠٠ رجل، كانت غالبيتهم من نبلاء قشتالة ومن ذوى الرتب العالية، وقد أعد من بينهم جيشا مدربا، لذا

كان هذا مشروعا مكلفا، فقد احتاج هذا المشروع الى تسع سفن، وكمية من الأسلحة الفعالة، ومئات من الخيول، وقطيع من كلاب الصيد غير المربوطة كي يهاجم بها الهنود، فضلا عن قطيع من الماشية والخنازير ومخزون ضخم من الأغذية، وقد زودت البعثة بكل مايلزمها . وقد كرس هيرناندو دي سوتو كل أمله في إنجاح هذه البعثة، وقد أخذ بعض الضباط معهم زوجاتهم وأطفالهم وتركوهم بعد ذلك في هافانا بكوبا، وهي الميناء الأول، كما كان يسمى في ذلك الوقت. وفي نهاية مايو ١٥٣٩م بدأ الجيش في التقدم على طول الساحل الشرقي من شبه جزيرة فلوريدا . وعندئذ بدأ دي سوتو بحثه على الفور ، ولمدة الشهور الستة التالية تمكن دي سوتو من فحص الجزء الغربي من القطر الذى يعرف في وقتنا الحاضر بولاية فلوريدا، فبحث عن مناجم الذهب وعن المدن وعن الممرات المائية، ومع ذلك فلم يجد دي سوتو شيئا يذكر، وقام هنود فلوريدا بمحاربته بيأس كما كانوا يفعلون في الماضي كي يطردوا الغزاة البيض بعيدا، ولكن دي سوتو كان أعنف من هؤلاء الذين جاءوا من قبله، فقد قام بمهاجمة الوطنيين بلا رحمة، وقال في ذلك الوقت شاهد عيان أسباني يدعى أوفيدوOvido ذلك الذى كان مقربا من دي سوتو مانصه :"إن دي سوتو كان مغرما برياضة قتل الهنود، فلم يتردد في المخاطرة بحياته أو حياة رجاله. فبينما كانوا يحاربون وهم في طريقهم من مدينة هندية إلى أخرى، حرق دي سوتو الكثير من الهنود في أثناء الطريق. وكانوا يتركون جثثهم لمجموعات الذئاب. ونتيجة لذلك فقد فقدت أعداد كثيرة من الهنود لما لاقوه من جانب الاسبان. وكان دي سوتو قد جرح جرحا سيئا في أثناء مناوشتين كانتا قد وقعتا، وفي كل مكان كانت النتيجة واحدة، فلم يستطع الهنود مجابهة البنادق والأقواس والنشاب والأسلحة الصلبية، وكلاب الصيد وفرسان الحرب.

ولمدة أربع سنوات، فقد مزق الجوع بشراسة بعثة النبلاء في أثناء بحثها عن الذهب الذى كان يمثل غاية حلمهم، فكانوا يبحثون عنه في الغابات والمستنقعات ومناطق قصب السكر، وفي التلال وقاع الأنهار، وفي المناطق البرية المترامية الاطراف. ومع ذلك فقد ضاع هذا البحث سدى. وقد غطى كشفهم مساحة شاسعة مجهولة في أمريكا الشمالية أبتداء من فلوريدا، وحتى جورجيا، وجنوب وشمال كاروليتا مارا

بالبلاشين والتنس والالاباما والمسيسبى، كما غطى منطقة فى اتجاه الغرب عبر نهر المسيسبى، وحتى أركانساس وإوكلاهوما شمالا بحذاء نهر المسيسبى، الذى لم يكن معروفا على وجه الدقة، ولكن من المحتمل إنه قطع مسافة تقدر بـ٢٠٠ ميل فى منطقة الميسورى، وفى صيف عام ١٥٤١م، ذكر المرشد الهندى الذى كان ضمن جيش كورونادو إنه لم يتبق أمام البعثة سوى مسيرة عدة أيام قليلة، وقد سمع كوروناد عن جماعته، وأرسل رسالة اليها، ولكن المرشد الهندى، فشل فى تحديد موقع جيش دى سوتو، وكان دى سوتو هذا . ورجاله عندما يذهبون فى طريقهم يتركون من خلفهم البؤس والمجاعة والموت، وفى مدينة تقع بالقرب من موبيل الحديثة فى ألاباما، حاول رئيس هندى أن يقلب المنضدة فوق رأس دى سوتو، فكان هذا الهندى قد دعا دى سوتو كى يجلس معه فى إحدى منازل المدينة المسورة وذلك لتبادل الحديث الودى معا، وفى تلك الأثناء، كان الجزء الرئيسى من الجيش الأسبانى خارج المدينة، وفى ذلك الوقت، كان المقاتلون الهنود مختبئين فى كمين بالداخل ومستعدين بالأقواس والسهام.

وقد أخذ دى سوتو معه عددا قليل من الرجال، وواصل المسير مخالفا بذلك نصيحة ضباطه، وبإشارة من الزعيم الهندى قفز المقاتلون الهنود، وهاجموا الجماعة الأسبانية الصغيرة، وكان دى ستوتو قد جرى أمام الآلاف من السهام، كى ينجو بحياته، وفى أثناء ذلك سقط مرتين على الأرض وجرح فى المرة الثانية جرحا خطيرا، ومع ذلك فقد نجح دى سوتو فى الوصول الى الجيش المرابط فى الخارج، وقد مات من رفاقه خمسة أشخاص، وقد أمر دى سوتو بمحاصرة المدينة وأضرم فيها النار، وقام بحجز الهنود بداخلها، ووقف الجنود الأسبان عند البوابات، ومنعوا الهنود من الهرب. وفى نفس الوقت قام بعض الجنود الأخرين بإبادتهم، ومع ذلك فقد حارب الرجال الحمر حتى الرمق الأخير، وبحلول الليل، كان قد قتل من الهنود ٢٠٠٠ رجل بواسطة الأسلحة الأسبانية، كما قتلوا باندفاعهم الى داخل المنازل المشتعلة، عندما لم يعد فى مقدورهم مواصلة القتال. وقد فقد عشرون أسبانيا حياتهم وجرح مائة وخمسون رجلا أخرون، وبعد أن استراح الأسبان فترة قصيرة كى يشفوا من إصاباتهم استأنفوا سيرهم، وهم فى حالة من الضعف صوب الشمال الغربى. وكانوا فى حالة من

الأعياء جعلتهم يشقون طريقهم بصعوبة من خلال مئات الأميال فى داخل الغابات الكثيفة والأراضى المستنقعية فى منطقة الألاباما والمسيسبى. وكان الشتاء قاسيا ببرودته فضلا عن مضايقة الهنود المستمرة للأسبان. وكان دى سوتو مغرورا بحيث لم يعد الى الساحل وينتظر سفنه كى تنقذه.

وفى يوم من عام ١٥٤١م- وفى شمال نهر المسيسبى الواقع على مسافة ٣٠ ميلا جنوب موقع ممفيس وتنس - وصل دى سوتو الى النهر الكبير، وفيما بعد، كتب واحد من رجاله يقول"كم كان هذا النهر واسعا لدرجة إنه لم يكن فى إمكان أى رجل التعرف على شخص واقف على الشاطئ المقابل من النهر"وفى نفس الوقت. كان دى سوتو يراقب الأشجار والطحالب البحرية الكثيفة، التى تكونت نتيجة للخشب العائم الذى حملته التيارات الشديدة. وعرفت جماعة دى سوتو أن هذا المجرى ليس مجرى عاديا، ولم يكن خروجهم لاستكشاف انهار كبيرة، بل استكشاف ذهب ومضيق يوصلهم إلى المحيط الهادى. وكان نهر المسيسبى عبارة عن مسطح مائى كبير يعوق تقدمهم لهذا قضى رجال البعثة شهرا فى بناء أربع مراكب، ثم عبروا هذا النهر ، وتابعوا بحثهم فى الجانب الأخر دون اعتبار لهذا النهر، الذى لايفوقه نهر آخر فى أمواجه. وبعد شهور عدة قضاها أفراد البعثة فى تجولات لافائدة من ورائها، تقدموا مسافات بعيدة إلى تكساس. وبعد ذلك استعدت البعثة للدفاع عن نفسها، وذلك بحفر الخنادق التى سيقضون فيها فصل الشتاء، وكانت هذه المنطقة تعرف بوادى نهر اركانساس. وبحلول عام ١٥٤٢م، أصبحوا فى حلة من اليأس. فقد قضوا ثلاث سنوات فى البحث، ولكن دون جدوى، مع أنهم كانوا قد فقدوا ٢٥٠ رجلا، كا فقدوا مامعهم من بارود، فضلا عن نقص المؤن، وتمزيق ملابسهم، زيادة على قسوة الشتاء، لذا عانى الجيش - قليل العدد - من شدة البرد وضراوة الجوع.

وفى النهاية، قرر دى سوتو أن يذهب الى البحر ويحاول الوصول الى مكسيكو وفى خلال شهرى مارس وابريل إتخذ دى سوتو طريقة الى وادى أركانساس، فبدلا من أن يقوده هذا الطريق إلى شاطئ خليج مكسيكو - كما كان يأمل - قاده الى نهر المسيسبى الواقع على مسافة مئات الأميال شمال خليج مكسيكو، وفى موقع ناتشز

الحديثة والواقعة فى منطقة المسيسبي أصيب دى سوتو بالحمى الشديدة، ولازم بسببها الفراش الذى كان مصنوعا من القش. وقد رقد هناك شهرا مات بعده، وخشى رجاله من أن يكتشف الهنود موته، ففى هذه الحالة سيشعرون بالشجاعة، ثم يعاودون الهجوم من جديد، ولكن رجالة أخفوا جثته، وعلى أيه حال ، لاحظ الهنود اختفاء قائد البيض عندما سألوهم عنه، وفى تلك الأثناء، أخبر الأسبان الهنود بأن دى سوتو قد ذهب الى السماء - فهذا شيء كان دى سوتو معتادا عليه من وقت لآخر - وسيعود فى أقرب فرصة، وبسرية تامة، وفى جنح الليل، لف الأسبان الجثمان فى عدد من البطاطين المنسوجة من شعر الجاموس،، وأثقلوه بالرمال ثم نقلوه من مكانه الى النهر، وهناك قامت جماعة الفرسان الصغيرة المسلحة، والكهنة المحجبين بإلقائه فى قاع النهر، وذلك على ضوء نور زورق صغير.

وكان قرار الجيش بعد ذلك، هو محاولة الوصول الى مكسيكو، وذلك بالمسير فى اتجاه الغرب. وكافح الرجال الذين ظلوا على قيد الحياة طوال فصل الصيف، ولكن بعد أن قطعوا مئات الأميال، وتخلوا عن الأمل، وعادوا الى المسيسبى. وهناك بنوا قوارب وسرقوا زورقا صغيرا، وبدأوا بعد ذلك فى المسير بحذاء النهر لمسافة ٧٠٠ ميل، حتى وصلوا الى الخليج. وكانت هذه المخاطرة من أجل الهرب، وكان الأمل الأخير لرجال انتابهم اليأس وبخاصة بعد ان غرق البعض منهم عندما انقلب بهم الزورق وقتل البعض الآخر بسهام الهنود التى كانت تنطلق عليهم من شواطئ النهر، مع أنهم كانوا يسرعون بقواربهم، وبعد ذلك انهالت عليهم الضربات فكان من الواجب عليهم التجديف لمئات الأميال، ابتداء من مصب نهر المسيسبى وعلى طول ساحله وحتى خليج مكسيكو، وفى النهاية، وبعد عدة شهور، وصلوا الى المستوطنه الأسبانية بانوكو Panuco الواقعة فى مكسيكو، فقد بقى على قيد الحياة ٣١١ رجلا فقط من الرجال البالغ عددهم ٦٠٠ رجل، والذين كانوا قد رسوا مع هيرنانو دى سوتو فى فلوريدا، وعند وصولهم لبانوكو، كتب أحدهم يقول "الكثير منهم قفز على الشاطئ وأخذ يقبل الأرض، وانحنى الجميع على ركبتيه، ورفعوا أيديهم الى أعلى وأعينهم تتقلب فى السماء وهم يشكرون الله مرة تلو الأخرى".

وهكذا، فقد انتهت المغامرة الكبيرة دون جدوى، مع أن دى سوتو كان قد شعر بأنه متأكد من تحقيق الربح، ولكى يأخذ على عاتقه تحقيق هذا العمل باع قصره فى سفيل Seville (أشبيلية) واستثمر ثمنه فى واحدة من أكبر المغامرات خطأ فى أسبانيا. وعند وفاته كانت أمواله عبارة عن خمسة عبيد، وثلاثة خيول، وقطيع من الخنازير. وبهذا الفشل المأساوى لكل من كورونادو، ودى سوتو، تخلت أسبانيا والى الأبد عن مسألة المدن السبع الأسطورية فى كيبولا، وطوال الأربعين سنة التالية قنع المغامرون الأسبان بشحن الثروة التى يحصلون عليها من جزر الهند الغربية، ومكسيكو وجنوب أمريكا إلى وطنهم، وعندما كان كل من كورونادو، ودى سوتو يخترقان اليابسة الى قلب القارة . كان مندوزا حاكم مكسيكو يواصل تفحصه للمضيق المحير الذى من الممكن ان يربط بين الأطلنطى والباسفيك. وقد رغب فى أن يرى ماذا كان هذا المضيق يقع فى النهاية الغربية، وذلك عن طريق كشف ساحل غرب أمريكا. ومن أجل هذا الغرض وضع سفينتين تحت إمرة جوان رودرجيز كابريللو Juan Rodriguez Cabrillo كى يبحر بهما نحو الشمال، وهو ملاح برتغالى يعمل فى خدمة أسبانيا وفى عام ١٥٤٢م، أبحر كابريللو على طول ساحل كاليفورنيا، وواصل المسير بعيداً حتى وصل الى خليج سان فرانسيسكو، وهناك مرض ومات، ومن بعده باشر مرشده بارتولومى فيرولو Bartolome Ferrele قيادة الأسطول الصغير، وواصل المسير شمالا الى الساحل الجنوبى من أوريجون Oregon، وبعد ذلك عاد لأن السفن لم تعد صالحة لأبحار، ولم يكتب كل من كابريللو ومرشده اى إشارة عن الطريق المائى الذى يمر من خلال أمريكا حتى الأنديز. وقد أجبر المكتشفون الأسبان على التخلى عن هذا الأمل أيضا.

مـــــاس كنـــــدا

كان جاك كارتيه * Jacoues Cartier ملاحا قديرا، بدأ رحلته من ميناء سنت مالو St. Malo الواقع فى بريتانى Britany بفرنسا. وكان برفقته عشرين سفينه صيد أسماك. وكانت هذه السفن تعبر المحيط الأطلنطى بانتظام كل سنه الى شواطئ نيوفوندلاند الكبيرة. وكانت هذه الرحلة تساند ايضا من جانب ملك فرنسا، فرانسيس الأول. وكان كارتيه Cartier قدأبحر فى ٢٠ من شهر ابريل عام ١٥٣٤م، وبصحبته ٦١ رجلا، كانوا جيمعا على ظهر سفينتين شراعيتين صغيرتين، وحمل كل فرد على ظهرهما أربعة مدافع، وكان الهدف الأساسى من إرسال هذه البعثة هو البحث عن طريق يوصل الى الهند بحيث يمر من خلال الجزء الشمالى من أمريكا. وبعد فترة من الوقت، وصل كارتيه الى الساحل الشرقى لنيوفونولاند، وهناك توقف ليصلح سفنه، وبعد ذلك، أبحر من خلال مضيق بلBell Isle الواقعة فى خليج سنت لورنس، وكان لديه أمال عريضة فى إيجاد طريقه نحو الغرب مارا من خلال القارة، عبر الخليج وكان فى تلك الأثناء حزينا ومتهالكا، لأنه وجد طريقة مسدودا بسبب وجود عقبة فى الطرف الغربى لخليج تشالر Chaleur.

وكان جاك كارتيه مصادقا لرجلين، هما أبناء الرئيس الأركوازى الذى كان يعيش فيما يعرف الأن بمنتريال، وقد خدماه كدليلين. وقد تحدث هذان الهنديان عن كندا وطنهم الأصلى، وعن أمجاد هذا الوطن، الواقع بعيدا نحو الغرب، والذى أسموه ساجونى Sagunay. ويصف الهنديان ساجونى بأن سكانها كانوا على جانب كبير من الثراء، فكانوا يرتدون ملابس مثل ملابس كارتيه، الذى تساءل ، عما اذا كان يسمع عن جزء من مملكه خان الصين العظيم، وفى بحثه عن خليج سنت لورنس دخل كارتيه

---

* ومن المحتمل ان يكون رجال كارتيه قد رأوا الهنود، وهم يقومون بقتل طيور بحرية، وطيور البطريق فى جزيرة العصافير الواقعة فى خليج سنت لورنس (المؤلف).

قناة تقع بين جزيرة انتيكوستى Anticosti وساحل الليبرادور Labrador وهنا كان التيار يجرى بانسيابية ضد كارتيه، وبخاصة عند جزر البحر حيث أن السفن كانت لاتستطيع التقدم إلى الأمام فعادت أدراجها وحتى عندما رغب كارتيه فى الأبحار، أنزل مركبا طويلا كان على ظهره ١٣ رجلا كى يقوموا بالتجديف وكان من المستحيل استخدام هذا المركب فى التقدم الى الأمام. وعند هذه النقطة الصعبة ، كان الصيف يقترب من الإنتهاء تقريبا، كما تناقصت المؤن فى الوقت نفسه، وعند ذلك قرر كارتيه أن يذهب الى الوطن (فرنسا) وبرفقته هنديان، وفى شهر مايو من العام التالى أبحر كارتيه الى أمريكا مرة ثانية، وكان فرانسس الأول قد أعطاه هذه المرة ثلاث سفن، منها اثنتان من نوع الهرمين Hermine، وكانت الثالثة من النوع الشراعى. وقد بلغت سعة أكبرها ١٢٠ طنا ، وسعة أصغرها ٤٠ طنا أما سعة المتوسطة فهى ٦٠ طنا، وفى تلك الأثناء، قام كارتيه بالدوران من حول الخليج، ولكن خاب أمله للمرة الثانية. ولم يوجد هناك فى أى مكان اى شئ يشبه المضيق لذلك، عاد كارتيه، الى مصب نهر سنت لورنس.

وقد أخبر الهنود كارتيه، بانه لايوجد هناك طريق يؤدى إلى بحر آخر، وكل مايوجد هناك هو نهر يبلغ عرض مصبه ٧٥ ميلا، ويضيق هذا المصب كلما بعدنا عنه، ويصبح ماؤه عذبا، وقال الهنود أن هذا النهر يوصل الى وطنهم الذى يسمونه هوتشلاجا Hochelaga وإلى الشمال من وطنهم يوجد وطن ساجونى الجميل Saguenay، وبعد ذلك قرر كارتيه الإبحار مع النهر. وفى كل مكان، كان أعضاء البعثة يقومون بعمل صداقة مع الهنود، وفى بعض الأحيان كان الهنود يطلبون من الفرنسيين البقاء معهم، وقد قدموا للرحالة الفرنسيين كميات ضخمة من الغزلان، ومن السمك الطازج، ومن الذرة والفواكه وجوز الهند، وجلود الحيوانات، وزيت الحوت والعاج الذى يمثل أنياب أفيال البحر، وعند مدينة تقع بالقرب من المكان الذى تقع فيه فى الوقت الحاضر مدينة كويبك، حاول الرئيس الذى يدعى دونا كونا Donnacona أن يمنع كارتيه من مواصلة السفر الى هوتشلاجا، وقد أغراه بتقديم العبيد له كرشوة، ومع ذلك فقد فشل فى إقناعه، ثم حاول بعد ذلك أن يجرب معه حيلة أخرى، وفى إحدى

الليالى ظهر فجأة ثلاثة هنود كانت وجوههم سوداء، وضعوا على رؤوسهم قرونا طويلة، وقد فسروا ذلك ببساطة إنهم كانوا شياطين، أرسلوا من السماء كى يحذروا كارتيه من الذهاب الى هوتشيلاجا، ولكن اذا أصر كارتيه على الذهاب فإن الإله سيجعل هذه المنطقة تمتلئ بالثلج والجليد، وفى هذه الحالة فإن جميع الفرنسيين سيتجمدون حتى الموت، ولكن أجاب كارتيه إنه يثق فى إلهه، وإنه سيحفظه فى أمان. وبعد ذلك غادر كارتيه هذا المكان، وبعد أسابيع قليلة، وصل الى هوتشيلاجا، مدينة أوروكوازى المسورة التى كانت تضم خمسين منزلا من المنازل الضخمة.

واعتبر الوطنيون الرجال البيض آلهه، فأحضروا لهم مرضاهم وألقوا بهم أمام كارتيه لعرقلته، وسألوه آن يضع يديه عليهم لشفائهم، وقرأ كارتيه اليهم من الإنجيل وصلى من أجلهم ووزع عليهم الهدايا. وتسلق كارتييه التل الكبير الذى يوجد بالقرب من القرية، وأسماه مونت ريال Mont Real. ومن على قمته استطاع أن يشاهد الأرض من على مسافة أميال كثيرة وقال :"أن الأرض مسطحة، وأنها صالحة للزراعة، ومن المتوقع أن يكون هذا القطر هو أجمل قطر رآه كارتيه فى أى مكان فى العالم، وأضاف يقول :"وعلى مسافة بعيدة من مرمى البصر شاهدت نهرا واسعا يتدفق من خلال هذا القطر، وتتناثر فيه أربعة شلالات، ولكن فيما وراء هذا الشلالات كان فى امكان الفرد أن يبحر على الأقل أكثر من ثلاث ليال قمرية. ومرة ثانية، أصبح الطقس باردا، وهبط كارتيه عائدا مع النهر الى كويبك، بينما ترك جماعته فى مونتريال * "مدة فصل الشتاء، وطوال مدة الشهور الباردة كان لايوجد هناك خضروات طازجة أو فاكهة، لذا تعرض رجال البعثة لمرض الإسقربوط، ولكن كارتيه علم من الهنود كيفية محاربة الأمراض، وذلك بالحصول على شراب من الشجر الأخضر، الذى كان يستخرج بواسطة آله حادة.

وقضى الرئيس دوناكونا، أمسيات شتوية يحكى فيها لكارتيه عن أمجاد

---

* فى عام ١٥٣٥م زار كارتيه هوتشيلاجا، وهى تمثل القرية المسورة، الخاصة بهنود الأركواز، وهى تقع على نهر سنت لورنس، والتى تمثل فى الوقت الحاضر مدينه منتوريال (المؤلف)

ساجونى. وكان من المحتمل أن يكشف كارتيه ساجونى، ولكن عندما قرر ذلك كان فى حاجة الى بعثة جديدة، ولكى يحصل على مساعدة من ملك فرنسا، قرر كارتيه أن يأخذ دوناكونا الى فرنسا، ويدعه يحكى للملك عن ساجونى وعجائبها، وعندما اقترب موعد سفره الى فرنسا، قام بخطف دوناكونا، وعددا قليلا من أصدقائه، وكان قد وعدهم بأنه سيرجعهم الى وطنهم بأمان فى غضون شهور قليلة. وعندما وصل كارتيه الى باريس، وجد الملك فرانسس الأول فى ضائقة مالية لهذا رفض هذا الملك أن يخاطر بإرسال بعثة كشفية أخرى الى أمريكا، تكلفه مبلغا كبيرا من المال، ولكن كارتيه حث الزعيم دوناكونا بأن يقوم بوصف ساجونى الى الملك الفرنسي، وقد عرض دوناكونا فى وصفه لساجونى عرضا جيدا. فقد أخبرالملك فرانسس بأنه زار أرض ساجونى. ورأى هناك بعينه المجردتين كميات كبيرة من الذهب والياقوت الأحمر وأشياء أخرى ثمينة، وقد تاثر الملك بذلك تاثرا عميقا، ومع ذلك فيما يبدو كان لايزال أمامه سنوات عديدة، يستطيع بعدها أن يزود كارتيه بالأموال اللازمة كى يقوم مرة ثانية على رأس بعثة الى أمريكا. وفى تلك الأثناء، كان دوناكونا، قد مات فى فرنسا. وقد كان هذا المشروع مغريا، فقد قاد كارتيه حملته الثالثة الى كندا فى مايو عام ١٥٤١م، وهناك قام بتأسيس مستعمرة فى أمريكاتعرف بمستعمرة فرنسا الجديدة. وكان الملك قد ساهم فى هذه البعثة بثلاث سفن، كما زوده أيضا بأكثر من ١٠٠٠ رجل. وكان فى مقدمة هؤلاء علاوة على كارتيه وكل من جيان فرنسوا دى لاروك Jean Francois de La Rocoue، والسير دى روبرفالSieur de Roberval، وعندما تأخر روبرفال أبحر كارتيه بمفرده على رأس خمس سفن.

وعندما وصل كارتيه الى موقع قرية هوتشلاجا Hochelaga القرية التى كان قد عرفها قبل ان تختفى، وجد فقط مكانا مهجورا وسط الغابات، وبالقرب منها وجدت ثلاث قرى هندية جديدة، ضمت أناسا لم يرهم كارتيه أبدا من قبل، ومع ذلك فلم يفكر كارتيه فى الوصول الى ساجونى، فبدلا من الوصول اليها عاد الى كويبك، وقضى الشتاء هناك بالقرب من تلك المدينة. وفى صيف عام ١٥٤٢م أبحر كارتيه عائدا الى فرنسا بسبب عداء الهنود للفرنسيين، وربما أيضا بسبب الكشف المثير الذى قام به فى

منطقة تقع بالقرب من موقع القيادة الشتوى، وهذا الكشف كان عبارة عن منجم،وكان كارتيه قد قام بالتنقيب فيه لاعتقاده بوجود ثروة كبيرة، تتمثل فى وجود براميل مملوءة بالذهب الخام والفضة، كما كانت تتمثل فى وجود سلة مملوءة بالأحجارالكريمة والياقوت الأحمر والماس. وفى الواقع كان هذا المنجم الذى تم العثور عليه، عبارة عن "منجم ذهب مزيف" فكل مايوجد فيه كان عبارة عن كبريتات الحديد الخام التى بدت وكأنها معدن مصفر فى الصخر، فهو يمثل الميكا التى تشبه الماس، بل وتمثل كريستال أكسيد الألمنيوم الذى يكون شبيها بالياقوت الأحمر والأزرق، وعلم كارتيه، بعد أن عاد الى فرنسا أن كل الأشياء التى حملها الى أرض الوطن كانت عبارة عن نفايات. ومنذ ذلك اليوم، أطلق الشعب الفرنسى أصطلاح كلمة "الغش" على ماس كندا Voila un .diamant de canda

وهكذا، وفى عام ١٥٤٣م، وضع الأسبانيون حدا – كما توقعوا للبحث عن مضيق بحرى يمر من خلال قارة أمريكا الشمالية، وبذلك تخلوا عن بحثهم عن المضيق الذى يمر عبر كندا، ولم يقوموا باستكشافات منظمة لمدة من الزمن بلغت ٦٠ عاما.

فرنســا تشـامبليان الجـــديدة

فى القرن ١٦م، توقف مستقبل أمريكا إلى حد كبير على نمط قبعة، فعندما كان صيادو الأسماك يمارسون الصيد فى الشواطئ الكبيرة لنيوفوندلاند، كانوا يبحرون فى خليج سنت لورنس، وحصلوا من المواطنين على فراء كلب البحر الثمينة، وذلك بمبادلتهم بالسكاكين والفئوس. فكانوا يصنعون من شعر كلب البحر هذا قماشا ناعما كالقطيفة، فالقبعة التى كانت تصنع منه كانت جميلة بحيث تعيش لسنوات طويلة، وفى تلك الأثناء كان الأوربيون الأثرياء يقدرون قبعاتهم المصنوعة من جلد كلب البحر. وقد ذهب الرجال البيض إلى أمريكا كى يتاجروا مع الهنود فى جلود كلب البحر، وبعد فترة طويلة، تخلى المستكشفون الأسبان والفرنسيين عن بحثهم عن مضيق يوصل إلى المحيط الهادى، وركزوا جهودهم فى تجارة الفراء الكندية التى زادت زيادة مضطردة وبحلول عام ١٦٠٠م، أصبحت تجارة الفراء مربحة، حيث تنافس عليها رجال الأعمال الفرنسيون، والتجار الكبار من أجل احتكارها، لذا رغب الملك الفرنسى هنرى الرابع فى الحصول على أرض فى أمريكا، لهذا أرسل رجالا فرنسيين كى يعيشوا هناك وبعد ذلك أصدر الملك مرسوما جاء فيه أنه إذا ارادت أى مجموعة من رجال الأعمال أن تحتكر تجارة الفراء فعليها أن تقوم بتأسيس مستعمرة فى أمريكا *.

وتكونت شركة لهذا الغرض، وكان أول شئ قامت بعمله هذه الشركة هو أنها أرسلت خبيرا فى علم الجغرافيا ليستطلع أحوال القطر، ومعرفة من أين يأتى إليه الفراء وكان الرجل الذى اختير لهذا الغرض هو صمويل تشامبليان Samuel Champlion الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ٣١ عام، والذى أصبح بعد ذلك واحدا من أهم الأشخاص الذين ظهروا فى أول عصر الاستكشافات الأولى فى أمريكا الشمالية، وعندما قام تشامبليان برحلته الأولى فى نهر سنت لورنس عـام ١٦٠٣م، لـم

---

* أصبحت فرنسا الجديدة مستعمرة ذات أهمية، بسبب صيد الأسماك من نيوفوندلاند، وبسبب انتاج الفراء من الغابات (المؤلف).

يكن هناك مستوطنة أوربية واحدة فى أى مكان على طول الشاطئ الشرقى لأمريكا الشمالية الواقعة إلى الشمال من النقط الأمامية الأسبانية فى فلوريدا، وعندما وصل تشامبليان إلى نهر سنت لورنس، وقف عند مدينة هندية تسمى تادوسكTadousac. وبعدئذ واصل المسير مع التيار الى نهر ساجوتى. وبعد أن التقى ببعض الهنود الذين كانوا، قد وصلوا إلى هناك، والذين كانو يتجرون فى الفراء، كانوا قد تحدثوا مع تشامبليان الذى كتب يقول:"إن هؤلاء الهمج جاءوا من الشمال، ويقولون إنهم شاهدوا فى وطنهم بحرا مالحا. وعندئذ اعتقد تشامبليان إنه اذا كان مايقوله هؤلاء الهنود صحيحا فإن ذلك يدل على إنه خليج مثل خليجنا الذى تفيض مياهه الى الشمال فى وسط القارة". وكان تخمينه صحيحا فهذا الخليج هو الخليج الذى اكتشفه هنرى هدسون بعد سبع سنوات وعرف باسمه، وقضى تشامبليان ثلاثة شهور فى تفحص هذه المنطقة نفسها، التى كان كارتييه قد أكتشفها من قبل. فعلى وجه التحديد كان قد توقف الى الشمال من هذه المنطقة بسبب شلالات لاشين lachine، التى تعترض مجرى نهر سنت لورنس St. Lawrence R.

وعندئذ كان على تشامبليان أن يعود من حيث أتى، لأنه لم يكن يملك أى زورق. وفى تادوسك هذه تاجر تشامبليان مع الهنود، وقد شحن سفينة بشحنة من الفراء الثمين، وبعد ذلك عاد الى فرنسا، وعند عودته الى أرض الوطن أوضحت تقاريره الرؤيا لمواطنيه عن القطر الواقع عبر الأطلنطى. وقد أدى ذلك إلى أثارة الناس حتى أن أكثر من سفينة كانت قد أرسلت الى أمريكا. وفى هذا الوقت ذهب تشامبليان مرة ثانية الى أمريكا بصفته جغرافيا خاصا من قبل الملك. وفى خلال السنوات الخمس التالية اكتشف تشامبليان مناطق سنت لورنس ونوفاسكوتيا والأرض الواقعة فى الجنوب الغربى التى عرفت فى تلك الأثناء بنيوانجلاند، وقد ظهرت هذه المناطق على الخريطة التى رسمت لخط الساحل ابتداء من رأس جزيرة بريتون، وحتى جنوب ماساشوستس، كما قام تشامبليان أيضا بعمل صداقات مع الهنود، وكان يأمل فى أن يقوده هذا البحث إلى مكان يشيد فيه مستوطنة فرنسية. وقد عاد تشامبليان بسفينته المعروفة باسم لودون دى ديو Le Don De Diew أو هبة السماء The Gift of God

إلى منطقة سنت لورنس، كى يشيد هناك مستوطنة، وعند منطقة من هذا النهر الكبير - الذى أسماه الهنود روبك Rebec أو المجرى الضيق - قدمت زوارق كثيرة وهى محملة بكلاب البحر وبالحيوانات الأخرى ذات الفراء، كما أنها شحنت أيضا بالجلود الأخرى لكى تتم عملية المقايضة مع الرجال البيض. وفى عام ١٦٠٨م، - وعلى نتؤ لسان أرض داخل البحر- بدأ تشامبليان فى تنفيذ المهمة الأولى الخاصة بوضع أساس مدينة كويبك.

ولعدة أجيال، تعرض الألجونكوينز Algonquins أصحاب هذا القطر، والقاطنين إلى الشمال من النهر إلى هجمات الأيروكواز الشجعان والقاطنين فى الجنوب. وكان تشامبليان بطبيعته رجل سلام، فقد وجد نفسه مجبرا على الإنخراط فى مشاكل هؤلاء الهنود. واختار ان يكون حليفا لجيرانه من هؤلاء الناس الذين تاجروا معه وهم الألجونكوينز، ومع شعوب أخرى تقطن فى الشمال وقد سمع تشامبليان عن بحيرة كبيرة تقع فى الجنوب، وقيل إنه يوجد بها عدد كبير من الجزر الجميلة. وتقع هذه البحيرة فى وسط قطر خصب وغني. ومن منطقة نهر سنت لورانس يمكن الوصول بالزورق الى نهر ريشيليو Richelieu الذى رغب تشامبليان فى القيام بزيارة كشفية طويلة وسلمية الى منطقته. ولكن فى عام ١٦٠٩م، طلب الهنود الهيورن من تشامبليان الإنضمام الى جماعتهم المحاربة، وذلك لمساعدتهم فى غزو الأيروكواز. وقد اصطحب ثلاثة من الفرنسيين فقط - هؤلاء الهنود - هم تشامبليان نفسه وجنديان - كما اصطحب ستين مقاتلا من الهنود بزوارقهم، واتجهوا جميعا الى البحيرة وكان الأوربيون الثلاثة يحملون معهم أسلحة نارية قديمة، كان من أهمها بندقية رش.

وبعد أن طافوا فى مياه البحيرة مدة ثلاثة أسابيع، التقوا بعدها بأسطول كبير مكون من عدد من الزوراق التابعة للأيروكواز. وفى صباح اليوم التالى بدأ الصراع بين الجماعتين على شاطئ البحيرة، وبدأت السهام تتطاير لأعلى وفى الوقت نفسه ، كان تشامبليان فى مقدمة القوة الشمالية الأمامية عندما بدأ فى إطلاق النيران من أسلحته. كما اطلق الجنديان النيران من الجانب الأخر، أى أنهم فعلوا مثل مافعل تشامبليان، وقد سقط ثلاثة قتلى من الأعداء. وقد ارتعد الموهاوكس Mohawks من أصوات

البنادق. ومن رؤية سقوط رجالها. وأما تشامبليان فقد قام بتأسيس حواجز خشبية، وفي الوقت نفسه انتهز الهنود الفرصة وحققوا النصر على منطقة كويبك.

وكانت نتائج هذه البعثة هامة بالنسبة الى الرجال البيض، بالإضافة الى الهنود. ففي تلك الأثناء، كان تشامبليان *، قد شاهد الطول والمساحة الكلية للبحيرة. وطالب مكتشفها بأن كل المنطقة التي تم كشفها والتي يبلغ طولها ١٥٠ ميلا تضم الى فرنسا. وقد أطلق على هذه البحيرة اسم بحيرة تشامبليان التي لاتزال تحمل اسمه. وبعد عدد قليل من السنوات، جاء الى تشامبليان أصدقاؤه من هنود الجونكوينز وهم يحملون معهم خطة حربية أخرى. وكانت خطتهم هذه تتمثل في توجيه ضربة قوية إلى هنود الأوركوازى، وذلك بالقيام بهجوم على حصن الأعداء القوى الذى على مسافة آلاف الأميال، أى يقع بالقرب من مدينة اونيادا الحديثة، الواقعة في وسط ولاية نيويورك، واحتاج هؤلاء الهنود الى تشامبيليان كي يقودهم في هذه المعركة. وعرف تشامبيليان، أن هذه المغامرة ستتيح له الفرصة في كشف مناطق مجهولة جديدة في الغرب والجنوب. فكان قد سمع عن وجود بحار عذبة كبيرة هناك، لذلك قرر أن يذهب الى هذه المنطقة. وفي يوليو من عام ١٦١٥م، بدأ رحلته على رأس بعثة حربية صغيرة، كانت على ظهر سفينتين، وتكونت هذه البعثة من خادم فرنسي، ومترجم، وعشر هنود. وقد اتجهت هذه البعثة الى نهر أوتاوا Ottawa، وبعد ذلك اتجهت غربا الى خليج جورجيا المتصل ببحيرة هيورن Hurnn. وكان الهنود قد اختاروا طريقا يتجه مباشرة الى الطرف الشرقي من بحيرة أونتاريو Ontario. ومن بعدها يتجه الى الداخل مارا عبر ولاية نيويورك، حتى يصل إلى نقطة تقع بالقرب من بحيرة أونيادا Oneida، وبعد ثلاثة شهور من مغادرة كويبك انتظر تشامبليان في هذه المنطقة بينما بدأت الجماعات الهندية

---

* استعمل تشامبليان على ظهر السفينة هذا المقياس الخيطي والساعة الرملية، كمساعدين له في الملاحة، وفي عام ١٦٠٤م، ١٦٠٥م اكتشف هو ومساعده السير دى مونتس Sieur de Monts جبل مهجور في منطقة المين Main كما اكتشف ايضا ساحل نيوانجلند، ثم ابحر جنوبا ماراً برأس الكود Cape Cod حتى وصلا الى فنيارد مارثاس Martha´s Vineyard. (المؤلف).

المتحالفة الثورة العارمة. وبعد ذلك تقدم تشامبليان ومعه قوة قتالية الى قلعة الأوركواز.

وفى لحظة ما أصبح هنوده على مرأى من الأعداء، وبدأوا هجومهم بلا ترو ولاتخطيط.

وعلى الرغم من أن الكثير من الأوركوازيين الموجودين فى داخل الحصن كانوا قد قتلوا أو جرحوا بواسطة بنادق الفرنسيين، إلا أن الخسائر كانت كبيرة بالنسبة للفرنسيين وحلفائهم، وذلك بسبب مهاجمة الألجونكينز، والهيورنز، الذين كانوا أكثر عددا. وبعد عدة أيام من إنتهاء المعركة تراجعت قوات تشامبليان.، ولقد جرح تشامبليان نفسه، وحمله هنوده بعيدا فى سلة، ومكث هناك فصل الشتاء على شاطئ بحيرة أونتاريو، وكان تشامبليان فى هذه الفترة تحت رعاية الهيورنز. وعندما أصبحت الطرق صالحة للمسير فى الربيع عاد تشامبليان الى كويبك. ومع ذلك فقد أبعدته الأعمال فى المركز التجارى عن القيام بالمزيد من المغامرات الأستكشافية. فكان يرسل أتباعه بصفة مستمرة للقيام بالبحث عن مضيق أو عن بحر فى الداخل . ولم يفقد تشامبليان الأمل فى العثور عليه. وقد استكشف هؤلاء الرجال الأرض فى جميع الإتجاهات. وذلك أضاف الكثير إلى المعرفة الأوربية عما يسمى فى الوقت الحاضر بالولايات المتحدة الأمريكية. وكما اكتشفوا نهر المسيسبى الذى يقع على مسافه بعيدة، وبذلك أضاف هذا الكشف المعرفة عن جنوب كندا وحتى خليج تشيسابيك .Chesapeak

ولم يقنع الفرنسيون بما فيهم تشامبليان * نفسه بكويبك كمستعمرة فرنسية، ففى عام ١٦٢٠م لم تزد عن كونها مركزا تجاريا، يضم خمسين فرنسيا فقط يعيشون هناك وفى تلك الأثناء – قام الإنجليز بتأسيس مستعمرات فى جيمس تون وفرجينيا، وبليمـــوث وماســـاشوستس، وبحلول عـام ١٦٢٥م أسس الهولنديون مركزا تجاريا فى

---

* كان منزل تشامبليان فى كويبك، عبارة عن بناء محصنا، وكان يسمى الأبيتشان Abitation وكان تشامبليان قد مات يوم عيد رأس السنة من عام ١٦٣٥ فى المدينة التى أسسها قبل ذلك بـ٢٧عاما.

أطلق تشامبليان نيران أسلحته على الأوركواز. وكان معضدا من جانب حلفائه من الألجونكين والهيورن. وقد وقعت معركة تيكونديروجا Ticonderoga فى صيف عام ١٦٠٦ على شاطئ بحيرة تشامبليان. وأبرزت هذه المعركة عداء الأوركواز لفرنسا (المؤلف)

نيوامستردام ولم يكن لدى باريس الرغبة الصريحة فى منح تشامبليان كل مايحتاجه من إمدادات. وفى النهاية، تأكدت من أن فرنسا الجديدة من المحتمل أن تخسر السباق مع القوة المنافسة، وباختصار، دخلت انجلترا الحرب ضد فرنسا، وقامت السفن البريطانية بعد ذلك، بغزو منطقة سانت لورانس. وفى التاسع عشر من شهر يوليو عام ١٦٢٩م، أجبر تشامبليان على التنازل عن كويبك، وأخذ هو والمستعمرون الآخرون من زملائه إلى انجلترا كأسرى حرب، ولكن عند وصولهم إلى انجلترا، علم آسروهم أن الحرب كانت قد انتهت، لهذا اطلقوا سراحهم، وعاد تشامبليان إلى فرنسا، وبذلك يكون قد قضى تقريبا على حياة فرنسا الجديدة، وبعد ذلك قضى تشامبليان معظم وقته فى باريس فى محاولات من أجل الحصول على الموافقة على العودة إلى مستعمرته فكان قد رغب فى الحصول على المزيد من التأييد لمستعمرته، وكما رغب فى الحصول على مستوطنين، وعلى قوة مسلحة كبيرة لتساعده فى اتمام هزيمة الأوركواز.

ومع ذلك، فقد فشل فى الحصول على المساعدة التى طلبها من حكومته (حكومة فرنسا) وفى عام ١٦٣٢م عاد تشامبليان الى كندا، وهناك قرر بناء المستعمرة من جديد، وقد وجد ترحيبا كبيرا. ورغبة لاحدود لها من جانب الهنود فى البقاء معهم. ومع ذلك فلم يستطع تشامبليان كشف مناطق جديدة. ولكنه ظل يرسل رجاله فى مهمات كشفية. وقد وصلت إحدى هذه البعثات التى كان على رأسها جيان نيوكولت Jean Nicolet الى بحيرة ميتشجان، وواصل هذا المكتشف المسير مع الشاطئ حتى وصل إلى الخليج الأخضر الواقع شمال مانسميه اليوم شيكاغو. وكان نيوكولت قد وضع ضمن أمتعته ثوبا مطرزا بالأزهار والطيور، وقد صنع من القماش الحريرى الصينى، وكان نيوكلت يرتديه فى حالة ماإذا وجد نفسه داخل حدود الصين، وذلك عندما يستمر فى اتجاهه إلى الغرب.

وقد أرسل رجال آخرون وبعثات تبشيرية مسيحية أخرى من أجل فرنسا الجديدة، بل ذهبت هذه البعثات الى أماكن بعيدة ومتعددة. ومع ذلك، فلم يشاهد تشامبليان انجازاتهم، حيث كان قد مات عام ١٦٣٥، أى بعد سنتين من عودته إلى كويبك، وقد حزن عليه الرجل الأبيض والهندى على حد سواء.

الطريق الشمالى الغربى

بحلول التسعينات من عام ١٦٠٠م، كانت هناك على الساحل الشرقى لأمريكا، أحداث على جانب من الأهمية ، وقد تمثلت هذه الأحداث فى البحث عن خليج أو مدخل أو نهر يؤدى الى داخل القارة. فكان هذا الساحل قد اكتشف بواسطة المستكشفين الذين بحثوا عن بداية طريق يؤدى إلى الصين، باستثناء جزء واحد بعيد نحو الشمال. وبعد أن كشف كابوت Cabot القارة أصبحت بريطانيا مهتمة مرة ثانية بأمريكا، ففى عام ١٥٧٦م، وبعد أكثر من ٣٠ عاما على تخلى كارتييه عن مهمته، بدأت انجلترا فى البحث عن طريق يكون ذا أهمية فى الوصول الى الشمال الغربي. وفى تلك الأثناء، قام جندى يدعى السير همفرى جلبرت Sir Humphrey Gilbert وهو أخ غير شقيق للسير والترو رالى Sir Walter Raleigh بالتخلى عن سيفه وبدأ فى قراءة كتب الجغرافيا الخاصة بأمريكا، كما قرأ كذلك الخرائط الخاصة بالعالم الجديد واستمر فى ذلك مدة طويلة. وكان السير همفرى مقتنعا بشكل قاطع بأن أمريكا كانت تمثل جزيرة.، وكان يوجد على طول الشاطئ الشمالى من هذه الجزيرة طريق تبحر فيه السفن من الغرب الى الشرق. وفى هذا الصدد كتب يقول مانصه "اقتصر هذا الكشف على أحد الأمراء من النبلاء الذى كان يهدف من وراء ذلك الى أن يحقق لنفسه الثراء فى العالم الجديد السعيد. وقد حصل همفرى على تصريح من الملكة اليزابث يخول له أرسال ضابط بحرى جسور هو مارتن فروبشر Martin Frobisherالى أقصى الشمال. وقامت الملكة وأصدقاؤها بالإنفاق على هذه المغامرة.

وكان فروبشر هذا، قد قام من قبل ذلك بسنوات طويلة بعبور الأطلنطى وفى عام ١٥٧٦ قام على رأس بعثة وصل فى أثنائها الى صحارى القطب الشمالى الجدباء. واكتشف فى تلك الأثناء، تجويفا عميقا لايزال يسمى بخليج فروبشر. وهناك أبحر فى اتجاه الغرب. ومر من خلال تجويف ضيق لمسافة أكثر من ١٥٠ ميلا، بحيث تحفه اليابسة من الجانبين. واعتقد ان الشاطئ الذى يقع على يساره هو شاطئ أمريكا والشاطئ الذى يقع على يمينه هو شاطئ آسيا، ولم يستمر فى المسير مسافة طويلة كى

يكتشف هذه القناة التى تضيق تدريجا حتى تنغلق فى النهاية. وهكذا، عاد الى انجلترا. وهو معتقد إنه اكتشف الطريق الذى يوصل إلى جزر الهند الشرقية. وكان واحد من رجاله قد ذهب على طول الشاطئ، بوعاد ومعه قطعة من الحجر الأسود، وبعد عودتهم الى انجلترا قام أحد الخبراء فى لندن بفحصها وبعد الفحص أعلن أنها ذهب.

وكان فروبشر قد أرسل بعثة ثانية، وكان مزودا هذه المرة بتعليمات تقضى بأن يعود من هذه الرحلة، وهو يحمل معه الكثير من هذا الخام الأسود. وبالفعل عاد فروبشر وهو يحمل معه ٢٠٠ طن تقريبا من هذا الخام، ولكن بعد فحصه اتضح أنه ذهب مزيف ويعنى ذلك إنه ليس معدنا ثمينا ومن أجل ذلك فقد خسر كل الناس أموالهم التى استثمرت فى جلب هذا الحجر. ولكن ليس قبل أن يرسل فروبشر فى رحلة ثالثة. وفى هذه المرة دخل ماعرف بعد ذلك بمضيق هدسون الذى كان من الممكن أن يقوده إلى خليج هدسون. ولكن فروبشر اعتقد إنه وقع فى خطأ على الرغم من إنه كان على أعتاب ماكان يمكن أن يكون أعظم وأهم اكتشاف له. وبعد وفاة فروبشر بأكثر من مائة عام، أرسلت أكثر من مائة بعثة لايجاد طريق نحو الشمال الغربى، وكان هؤلاء المقامرون يبحثون عن هذا الطريق ، ويصطادون الحوت (وفيل البحر والفقمة). وبعد رحلة فروبشر بعشر سنوات، قام جون دافيس John Davis وهو انجليزى آخر بثلاث رحلات كشفية لتفتيش المياه بين جرين لاند فى الشرق، وسلسلة القطب الشمالى فى الغرب. وهى القناة الكبيرة المسماة بمضيق ديفيس وقد رأى أيضا المدخل المؤدى الى مضيق هدسون، الذى يوصل بالتالى الى خليج هدسون، وقدمنع التيار العنيف ديفيس من التقدم فى تلك المنطقة، لأن الماء كان يتقلب بسرعة، ويحدث خريرا مرتفعا مثلما يحدثه المد والجزر. لهذا لم يقامر ديفيس بالتوغل فى الداخل.

وبعد خمس عشرة سنه من وفاة ديفيس دخل رجل إنجليزى ثالث يدعى جورج ويموث George Waymouth الى مضيق هدسون، وكان قد أبحر أكثر من نص الطريق عبر قناة تتجه نحو خليج هدسون، ويبلغ طولها ٤٥٠ميلا، ولكن هذا الا المغامر لم يحقق هدفه بسبب خوف رفاقه من الجليد، لذا عاد الجميع ولم يكون الا فى هذا البحار المحملة بالجليد عبثا كما جاء ولكن المعلومات التى حصلت عليها ،

البعثة والخرائط التي رسمتها عن هذه المناطق. قادت الى واحد من أعظم وأهم الأستكشافات فى تاريخ أمريكا، وهى المغامرة التى قام بها هنرى هدسون فى الخليج الكبير، وهو بحر داخلى، تبلغ مساحته ضعف مساحة تكساس وسمى هذا الخليج باسم هدسون، وقضى هنرى هدسون كل سنواته كمكتشف محاولا إيجاد أقصر طريق يؤدى الى الصين، واقتنع بأن الإنسان فى إمكانه الوصول الى الشرق من أوربا عن طريق الإبحار على طول الحافة الشمالية لليابسة، اما إلى الشرق أو الغرب، وقد بدأ البحث عن الطريق الشمالى الشرقى الواقع على طول ساحل روسيا وسيبريا، ولكنه فشل مرتين، وكانت المرة الثانية عندما عضده على العودة بحارته بزعامه زميل له يدعى روبرت جيوت Robert Juet.

وأما عن محاولته الثالثة، فقد تخلى عن المساعدة التى يقدمها له الإنجليزى كى يقوم برحلته لحساب شركة الهند الشرقية الهولندية، ولقد شرع فى القيام برحلته من هولندا عام ١٦٠٩م، فى سفينته الصغيرة التى سميت نصف القمرHalf Moonوكان برفقته طاقم مكون من عشرين رجلا، وانطلق هدسون الى الشمال الشرقى أكثر من مرة. وعندما وجد نفسه أمام عائق من أرض نوفازمبلا Nova zembla فى شمال روسيا المغطاة بالجليد، بدأ رجاله مرة أخرى فى التذمر، لهذا تخلى عن محاولته الخاصة بإيجاد طريق يمر من حول هذه المنطقة. وعندئذ، غير طريقه، وعبر الأطلنطى كى يبحث عن طريق يؤدى الى جزر الهند بحيث يمر من خلال أمريكا. وأبحرت السفينة (نصف القمر) على طول ساحل خليج تشيسابيك، وبعد ذلك عادت إلى الشمال. وفى ١١ من شهر سبتمبر عام ١٦٠٩م، دخلت السفينة الخليج العلوى وهو مايعرف الآن بميناء نيويورك. وكانت أول سفينة أوربية معروفة زارت هذا الميناء هى السفينة التى قادها فيرازانو. قبل ذلك بخمسة وثمانين عاما. وتقدم هدسون إلى النهر الكبير، فأبحر مع التيار مسافة ١٥٠ ميلا، وبعد ذلك، استمر فى الإبحار فى قارب لعدة أميال قليلة. وقد سحره الخريف بما فيه من أوراق أشجار حمراء ذهبية، كما سحره أيضا الجو الصافى والوادى الجميل، والنهر الواسع والسلسلة الصخرية المدببة المعروفة باسم كاتسكيلز Catskills، ولكن كان كلما توغل. كلما وضحت الحقيقة، بأنه لم يستطع إيجاد

طريق يوصل إلى المحيط الهادى حتى ذلك الوقت.

وعلى طول النهر، وجد الهنود شعبا محبوبا، الامر الذى لايمكن أن يقال عن رجاله الذين قتلوا عددا منهم (أى من الهنود) على طول الطريق وعندما شعر الهنود بأن هدسون ورجاله كانوا يخشون أقواسهم وسهامهم حطموها وألقوا بها فى النار، وبعد ذلك أحضروا جلود كلب الماء وكلب البحر الى السفينة نصف القمر. كى يستبدلوها بالخرز والسكاكين والفئوس، وعندما وصلت هذه الأخبار الخاصة بالإتجار فى الفراء إلى هولندا، اندفعت السفن الهولندية على أثر ذلك إلى هذا المكان، وظهرت إلى الوجود وعلى وجه السرعة مستعمرة إمستردام الجديدة. وفى ذلك الوقت ، طلبت الحكومة البريطانية أن يباشر هدسون أى عمليات كشفية من أجلها وليس من أجل هولندا، ولهذا فقد انطلق هدسون فى العام التالى من انجلترا متوجها الى منطقة القطب الشمالى الأمريكى وذلك ليرى ماإذا كان فى الإمكان التوغل فى الداخل أكثر من سابقيه من أمثال فروبشر، وديفيس، وريموث وملاحون بريطانيون آخرون.

استخدم هدسون سفينة ويموث فى العمليات الكشفية التى قام بها، كما استخدم خرائط إسلافه، فكان قد أبحر مباشرة إلى مياه المضيق الهائجة، وقد واجه مضايقات من جانب بحارة السفينة ويموث. وكان ضباب الصيف الكثيف قد خيم على المضيق، فجعله منطقة مرعبة، وتميز أيضا بشواطئه المقفرة وبصخوره الخطيرة وبجباله الثلجية العائمة. وفى اليوم الثالث من شهر أغسطس عام ١٦١٠م، فرح هدسون عندما شاهد المضيق الذى يبلغ عرضه خمسة أميال ويزداد اتساعه حتى يصبح بحرا واسعا يبعد عن مرمى بصره وعلى حسب معرفه هدسون، فإن مياه هذا الخليج المفتوحة قد تمتد إلى الصين، فهذا هو خليج هدسون. وناضل هدسون من أجل الكشف مرات عديدة، فقد قام بالبحث عن طريق يوصل إلى الجنوب عن طريق خليج جيمس ذى المياه الضحلة، ولكن لم يوجد هناك "مضيق" وبعد عدة أسابيع عارض البحارة هذا العمل.

وكان روبرت جيوت المتحدث الرسمى للبحارة المتمردين، وقد مارس جيوت هذا التمرد فى جميع رحلات هدسون الثلاث السابقة، ومع ذلك اتخذه هدسون كرفيق مرة ثانية وقد وقف بجانب جيوت هذا، شاب صغير، كان من ضمن أفراد البعثة، وكان هذا

الشاب يدعى هنرى جرين Henry Green، الذى فضل الشنق فى وطنه على الجوع فى الخارج، وكان هدسون يأمل فى القضاء على هذا التمرد، فقام بعزل جيوت وزميلين آخرين له. وبعد ذلك واصل هدسون كشفه عبر المجرى من أجل البحث عن قناة، واستمر كذلك حتى بدأ فصل الشتاء، وبعد ذلك رسى بسفينته على الشاطئ، وهناك بدأ في حفر الخنادق للتحصن فيها طوال هذا الفصل، وبقدوم فصل الربيع فى يونيو، رغب هدسون في مواصلة بحثه عن طريق مائى يتجه إلى الغرب، ولكن العصيان الذى حدث فى صفوف بحارته عرقل خطة الكشفية ، وبعد ذلك قاد كل من جيوت وجرين غالبية البحارة، وذلك للقيام بمهمة الكشف، بينما أجبر هدسون، ومعه سته آخرون على المكوث فى قارب كان مقطورا فى السفينة، ولكن فى نفس هذه اللحظة ثار بحار من السفينة على المتمردين وانضم إلى هدسون فى قاربه، وأخبر المتمردين إنه عرف ان الله سيقف الى جانب الحق "الى جانب هدسون".

وبينما كانت المركب التى تقل هدسون وزملاءه المخلصين تسير ببطء فى وسط سطح مائى واسع وساكن، ظهر شخص فى مؤخرة السفينة "دسكفرى" Discovery وهو يحمل فى يديه فأسا، وفجأة رفع هذا الشخص الفأس وأنزلها بقوة على اللبان (أى على الحبل الذى يجر به القارب)، وبهذا العمل إنفصل القارب عن السفينة بمن فيه من بحارة وتركوا فى الخلف وهم معرضون للموت، وأبحرت السفينة "دسكفرى" بأمان إلى أرض الوطن، بينما قتل هنرى جرين بواسطة الأسكيمو، عندما ذهب الى الشاطئ، وحاول أن يسرق منهم الطعام، كما مات جيوت بسبب الجوع أيضا. وقد ترك هدسون عمدا عند هذه المياه النائية، حتى مات هو كذلك وعرفت خبر وفاته فى انجلترا لأن واحدا من الأشخاص التسعة الذين ظلوا على قيد الحياة والذين وصلوا الى انجلترا اخبروا بالقصة بكامل تفاصيلها. فما الذى كان يقع الى الغرب إذن من هذا البحر الداخلى العظيم، الذى رآه؟ وهل كانت المياة المفتوحة تمتد على طول الطريق الى المحيط الهادى؟ والإجابة أنه لم يستطع أحد أن يجيب على ذلك بشئ، وذلك لأن السفينة "دسكفرى" لم تصل فى تجوالها الى الغرب، ولكنه كان بحرا ذا مساحة عظيمة. وقد فرحت انجلترا بهذا التقرير الذى جعلها تبدر مقتنعة بأن السفينة البريطانية كانت قد وجدت الطريق

الشمالى الغربى. وكان ينبغى ان يشنق المتمردون الذين عادوا بعد محاكمتهم بسبب إرتكابهم لهذه الجريمة، ولكن لم يحدث شئ من هذا او ذلك، أى أنهم لم يعاقبوا، لأنهم هم الوحيدون الذين كانوا قد أبحروا فى البحر، وهم الذين كان من المعتقد إنهم سيقومون مرة أخرى بالإبحار إلى جزر الهند، حيث أن معرفتهم كانت على جانب من الأهمية وعلى هذا فمن الخسارة الفادحة قتلهم.

النــــــهر الكبــــــير

فى الستينات من القرن السادس عشر، كان معظم ساحل أمريكا قد اكتشف. وبعد ذلك، كان راسموا الخرائط فى أوربا لايزالون يعتقدون فى وجود طريق يمكن للسفن أن تبحر فيه عبر هذا العالم الجديد الى جزر الهند. وكان المستكشفون لايزالون يحاولون البحث عنه. ومن فترة سابقة ، استقر البريطانيون فى جزء كبير من نيواتجلند، فكانوا قد استولوا من الهولنديين على مستعمرة الأراضى المنخفضة الجديدة وأعادوا تسميتها بنيويورك، ومن فرجينيا فى الجنوب توغلوا فى الداخل ومع ذلك فلا يزال الجنوب يقع على مسافة نائية. وفى ذلك الوقت، كان يوجد فى هاتين القارتين مناطق شاسعة كثيرة تقع تحت هيمنة أسبانيا الجديدة. عندئذ، أخذ نصــــيب فرنسا *من أمريكا يتناقص، مع أن تشامبليان كان قد جد فى تحقيقه، وذلك بتأسيس مستعمرة كويبك، ويرجع ذلك الى عداء الأوركواز لفرنسا الجديدة، فكان هؤلاء الأوركواز – يتاجرون مع بريطانيا وهولندا – وفى الوقت نفسه، كانوا يقومون بهجماتهم على المستوطنـات الفرنسية. وفيالنهاية، أى فى عام ١٦٦٥م، قررت فرنسا أن يكون لها موطئ قدم فى أمريكا يستحق أن تحارب من أجله، وأرسلت جيشا إلى كويبك على درجة كبيرة من القوة بحيث يكون فى إمكانه القضاء على دولة الأركواز. وفى خلال شهور قليلة أجبر أعداء فرنسا على الإستسلام وطلب السلام.

وهكذا، وبعد إزاحة العدو ، انتشر المغامرون ، والتجار، ورجال البعثات التبشيرية على نطاق واسع فى الجزء الشمالى الأوسط من القطر، وإقاموا مراكز أمامية عند النقــــاط الرئيســـية، وادعوا ملكية الأرض. وكان هدفهم الأسمى هو تشييد امبراطورية

---

* فى يناير من عام ١٦٨٠م، وقف لاسال أثناء كشفه فى الداخل عند قرية هنود اللينوى الأصدقاء. وأطعم الهنود جماعة لاسال، وكل ماضايقهم هو أنهم كانوا يحملون فى أرجلهم الشحم. وقد حصل لاسال من الهنود على بعض البلط والتوباكو، وبعد فترة قصيرة، بنى حصن كريفاكير القريب من الهنود والواقع على نهر اللينوى (المؤلف)

قوية فى امريكا. يكون فى إمكانها الهيمنة على طرق التجارة الرئيسية اذا استطاعوا ايجادها، والبحث الجاد فى الجانب الآخر من القارة عن طريق مائى يوصل الى المحيط الهادى. وكان لويس جوليت Lewis Jolliet رجلاً فرنسى الجنسية، وكندى المولد وواحدا من أعظم المرشدين الجسورين للطرق. وعمل هذا المرشد تاجراً لعدة سنوات مع الهنود، فعرف كيف يحدد طريقه خلال الغابات الشمالية الكثيفة، وعرف كيف يقود قاربه فى المياه الهائجة. وفى عام ١٦٦٩م، إنطلق جوليت من كويبك للبحث عن مناجم النحاس التى اعتقد إنها توجد على شاطئ بحيرة سوبريور. وقد وصل فى بحثه الى مسافة بعيدة حتى حصن القديسة مارى Sault Saint Mari الواقع فى شبه الجزيرة العليا لولاية متشيجان الحالية، حيث تتدفق مياه بحيرة سوبر يور إلى بحيرة هيوررون Lake Huron.

وهناك قابل جوليت الأب الشاب الجزويتى. وقد اختار ماركت حصن القديسة مارى ليكون موقعا لبعثته، ويمثل هذا الحصن واحدا من سلسلة المحطات التى أسست على شواطئ بحيرة الوطن بواسطة الكهنة الفرنسيين. وقد علم ماركت من الهنود بوجود نهر كبير ليس على مسافة بعيدة من حصن القديسة مارى الذى أنشئ فى الشمال، وتتدفق مياه هذا النهر نحو الجنوب. ويستمر مجراه حتى يصب فى البحر. وقد علم جوليت بوجود هذا النهر. وبعد ذلك عاد جوليت الى كويبك فى خريف عام ١٦٧٢م، وبدأ مرة ثـــانية فى البحث عن هذا النهر، بقدر طاقته. وفى مايو عام ١٦٧٣م، بدأ جـــوليت وماركت** وخمسة رجال آخرون بحثهم، وكانوا جميعا على ظهر مركبين شراعيين. وقد ذهبوا جميعا الى خليج جرين، الذى كان يمثل الذراع الضخم لبحيرة متشيجان الواقعة فى الشرق، وقد حرص الهنود على المحافظة على تجارتهم مع جوليت، لذلك حاولوا من جانبهم منع الفرنسيين من التوغل أكثر من ذلك، وعلى حد قول الهنود فإن الشياطينقد تلتهم أفراد البعثة وقواربها معا، ولكن الفرنسيين استمروا فى تقدمهم، وقد تمكن سته من الحطـــابين من ذوى العضـــلات القوية. من القيـــام بمجهود

** فى عام ١٦٧٣م، هبط كل من لويس جوليت وبيير ماركت بمراكبهم الى نهر المسيسبى. (المؤلف).

تقدمهم، وقد تمكن سته من الحطـابين من ذوى العضـلات القوية. من القيـام بمجهود عنيف ، كانوا قد بذلوه فى التجديف، وفى حمل أمتعهم، وفى شق طريقهم ضد التيار على طول نهر فوكس، واستمروا فى مسيرهم حتى نهر وسكنسن، وكـان برفقتهم القسيس ذو الملابس البالية.

وهناك كتب ماركت يقول " غادرنا منطقة المياه التى تتدفق الى كويبك، بعد ان بدأنا التجول من فوقها.، وسوف يؤدى بنا هذا الى أرض غريبة، وفى يونية من عام ١٦٧٣م، وبدهشة وسروربالغين رأى رجال البعثة أمامهم نهر المسيسبى بالقرب من المدينة الحالية الواقعة فى بريرى دى شين Prairie du chien وبينما كانت المراكب تسير فى مجرى ضخم شعر جوليت بكل تاكيد إنه وجد الطريق المائى الغربى مع أنه كان فى طريقه الى كاليفورنيا والمحيط الهادى. وكان رجال البعثة قد وصلوا الى قطر مجهول. وعلى جانب من الثراء، وكان التيار يساعدهم على المسير، عندما كانوا يجدفون فى المجرى الرئيسى، وقد امتلأوا بهجة بسبب رؤيتهم للوادى الواسع الملئ بالغزلان، والأشياء الأخرى الموجودة فى هذا القطر. وفى تلك الأثناء كانت احدى القوارب قد ارتطمت بسمكة كبيرة. وفى هذا الصدد كتب ماركت يقول "فى الغالب قلبت تلك السمكة القارب، وقد رحب الهنود بالفرنسيين بود، بحيث أعطوهم غليونا كان يستعمله هنود أمريكا كإشارة أو كدلالة على السلام. وفى أوقات كثيرة كان لهم القدرة على تجنب مضايقة القبائل غير الموثوق بها وذلك بالتلويح بهذا الغليون.

وكان جوليت فى حيرة من أمر هذا النهر، ولكن كى يصل الى خليج كاليفونيا كان ينبغى عليه القيام برحلة طواف طويلة صوب الغرب حيث أن المجرى الرئيسى استمر فى المسير فى اتجاه الغرب، وعندما أقترب من موقع مدينة سنت لورنس الحديثة دهش بسبب رؤيته لمجرى آخر واسعاً متصلا بنهر المسيسبى وقد تحقق جوليت من آن نهر ميسورى سيقودهم تجاه الغرب الى كاليفورنيا، وهذا لم يكن يحدث وذلك لأن نهر المسيسبى لم يتدفق فى الباسيفك، ولكن كان يتدفق فى خليج المكسيك الذى اكتشف آنذاك لذلك قرر جوليت مواصلة الإبحار مع نهر المسيسبى، وبعد أيام قليلة رأى مصب أهايو، حيث تقع الليتويز كالقاهرة Cairo - Illionis أو كما تقع القاهرة،

وهناك رأى مصب نهر الأوهايوOhio، بعد ذلك تقدم جوليت *جنوبا، ووقف بعد ذلك بعد ذلك عند نقطة التقاء نهر أركانساس بالمسيسبي. وهناك تفاوض مع الهنود، وقد ذكر ان مدة السفر تستغرق أكثر من عشرة أيام، يصل بعدها الى الخليج، ولكنه مع ذلك قد حذر من الاستمرار في المسير في ذلك الوقت، وذلك لأن القبائل القاطنة في الجنوب كانت قبائل مقاتلة لديها البنادق التي حصلت عليها من الأسبان.

ولم ير جوليت أي سبب في مواصلة رحلته ليعرض نفسه للوقوع في الأسر في أيدي الوطنيين، أو في أيدي الأسبان أنفسهم، لهذا عاد بعد رحلة قاسية بحيث كان عندئذ صاعدا مع النهر، ووصل في النهاية الى كويبك في الصيف لتالي، وقبل خمس سنوات من رحلة كل من ماركت وجوليت وجد مغامر آخر، كان قد بدأ رحلته مع نهر المسيسبي. وكان هذا المغامر الأخير هو روبرت كافيلييه دي لاسال Robert Cavelier de la sallوهو تاجر فراء شاب وابن تاجر ثري من فرنسا، وكان يعيش في سنت لورنس، وهو الذي اصبح فيما بعد أعظم رائد من الرواد الذين ساهموا في كشف أمريكا في عصره، فكان هذا المغامر قد خطط بنفسه لكشف أكبر نهر. وكان قد جاء الى امريكاعام ١٦٦٦م، ليقوم بالإشراف على ضيعة واقعة بالقرب من مونتريال التي كان قد حصل عليها من الملك، وقد ناداه جيرانه باسم ضيعته (لاشين) الصين بسبب إصراره المتكرر بأنه من الممكن ايجاد طريق للسفن يصل بها الى الصين. ورغب لاسال في التوغل في الداخل من فرنسا الجديدة صوب الجنوب والغرب، لكي يتفحص القطر الواقع بين البحيرات، العظمى ومكسيكو، واذا وجد هناك فراء جيدا فإنه في هذه الحالة سيقوم بتشييد مراكز تجارية كما إنه في الوقت نفسه سيدعم حق فرنسا الجديدة، في هذا القطاع الضخم من أمريكا، وسوف يحمي هذا الحق بإقامة سلسلة من القلاع. واذا كان الطريق الى الصين يمر عبر المناطق الداخلية فإن لاسال كان يتمنى أن يكون هو ذلك الرجل الذي يكشف هذا الطريق.

---

* عاد ماركت وجوليه من عند النقطة التي يلتقي عندها اركنساس بالمسيسبي، وبعد عشر سنوات، اي في عام ١٦٨٢م نزل لاسال الى النهر، ووقف في هذه المنطقة وشيد حاجزا، وبعد ذلك واصل السير الى خليج المكسيك. (المؤلف).

وازدادت آمال لاسال، عندما زاره فى لاشين بعض الهنود القادمين من الغرب ، وحدثوه عن "النهر الكبير" الذى تتدفق مياهه من وسط القارة، ويصب فى بحر فيرميليون (خليج كاليفونيا) الذى يقسم الأرض الى قسمين، وقالوا: لكى يصل لاسال الى النهر كان عليه أن يذهب فى قارب الى بحيرة إيرى Erie، التى يستغرق السفر اليها مدة ثلاثة أيام، واعتقد لاسال مثل جوليبه، بأن النهر من المرجح أن يسير فى اتجاه الجنوب والغرب، ومن المحتمل أيضا أن يصب فى خليج كاليفورنيا، فإذا كان الأمر كذلك، فإن الطريق فى الواقع يمر عبر المياه الى الانديز Indiesومن العجيب جدا أن يبيع لاسال ضيعته فى الصين لكى يمول بعثة كشفية، وفى صيف عام ١٦٦٩م، شرع لاسال فى الكشف عن النهر، وكان برفقته مجموعة مكونة من المرشدين الهنود. وقد تجول لاسال فى القطر ، ولما فشل فى ايجاد نهر المسيسبى مع إنه كان قد تجول فى كل القطر، تحدث الى الهنود، وعلم منهم كل مايمكن معرفته عن الأرض وابعادها. وفى عام ١٦٧٣م، عاد لاسال الى كويبك.

وقضى لاسال عدة سنوات تالية، فى عمل مايمكن عمله، لزيادة تجارة الفراء وفى هذا الصدد منحه ملك فرنسا حق احتكار كل الأعمال التجارية فى وادى المسيسبى لهذا شيد مراكز تجارية فى غرب ولاية نيويورك الواقعة على بحيرة متشيجان وعلى نهر اللينوى، وهناك بنى السفن كى تساهم فى نقل الفراء على وجه السرعة من خلال المياه الداخلية. ومع ذلك لم يتخل أبدا عن أمل تتبع المسيسبى فى يوم حتى يصل إلى البحر.

وبعد أن عاد لويس جوليت من كشفه عام ١٦٧٤م، كان قد عرف حتى نقطة التقائه مع الأركانساس، وفى ذلك الوقت ، عرف لاسال * أن المسيسبى لم يكن طريقا الى الصين، لأنه عندما سافر على طول النهر مع التيار وصل الى خليج مكسيكو، واستطاع ان يطالب فرنسا بهذا النهر (نهر المسيسبى) وواديه الضخم الذى يمر متدفقاً من خلاله، وبذلك استطاع لاسال آن يؤسس امبراطورية فرنسية فى قلب أمريكا.

---

* نزلت جماعة لاسال نهر المسيسبى، وقررت أن يسمى هذا النهر بنهر كولبرت Colbert، نسبه الى رئيس الوزراء الفرنسى الذى كان يشغل وظيفته فى عصر الملك الفرنسى لويس الرابع عشر. (المؤلف).

وفى يناير من عام ١٦٨٠م، اسس لاسال مركزا تجاريا على نهر الليونى الواقع بالقرب من الطرف الجنوبى لبحيرة ميتشجان، وكان من الممكن ان يطلق على هذا المركز التجارى حصن الحزن واليأس، وذلك لما صادفه هناك من إثباط لهمته.

وبمجرد أن انتهى (بناء الحصن) بدأ لاسال فى بناء سفينة، حمولتها ٤٠ طنا حتى يتمكن من القيام برحلة مع نهر الليونى، ثم يواصل المسير حتى الخليج، ولكن مع ذلك لم يكتمل بناء السفينة، لأنه لم تكن توجد هناك تجهيزات وإمدادات أكبر. ولهذا السبب رغب فى الإعلان عن عملياته التجارية الأخرى. وبعد ذلك قرر لاسال العودة الى الحصن الذى كان قد أسسه فى نياجرا، والواقع فى غرب ولاية نيويورك، وبلغت مسافة، هذه الرحلة آلالف الأميال. وفى هذا الوقت كانت لاتزال الأنهار والبحيرات متجمدة، لذا لم يستطع لاسال القيام بأى رحلة بواسطة القارب، فضلا عن أن الطريق البرى الذى سيتخذه كان صعباً أيضا لأنه كان مغطى بطبقة سميكة من الجليد الزلق. وبعد هذه الرحلة، وهى بكل تأكيد تعد من أصعب الرحلات التى قام بها فى البرارى والقفار الأمريكية، وكان على لاسال أن يعود مرتين أخريين إلى مركزه فى الليونى، كى يواجه حوادث فجائية قد ظهرت فى مراكزه التجارية بسبب إندلاع جديد لأعمال حربية هندية. وفى تلك الأثناء، وبعد مرور سنيتن، هاجم الأوركواز الذين كانوا فى حرب مع أصدقاء لاسال من اللينيوس حصن كريفيكر، وأحرقوا السفينة التى لم ينته بناؤها بعد، وبعد ذلك غادروا المستوطنة.

وفى النهاية، أى فى عن ١٦٨٢م، كان لاسال يحاول القيام برحلة بأسطول صغير مكون من عدد من القوارب، وقد ضمت هذه البعثة ٢٣ فرنسيا، ١٨ محاربا هنديا، وعشر نســوة من الهنديات، وثلاثة أطفال، وبعد ذلك بدأت البعثة مهمتها من بحيرة متشيجان، ومرت من خلال مناطق الثلج والجليد. وفى هذه المناطق قام الرجال بجر قواربهم وأمتعتهم بعد أن وضعوها على ظهر المركب حتى وصلوا الى نهر الليونى، وعند وعند أطلال حصن كرافيكير، أنزلوا قواربهم الى النهر، وكان الجليد يعوق نقطة التقاء نهر المسيسبى بنهر الليونى. لذلك كان على الأسطول الصغير الإنتظار مدة أسبوعين حيث يذوب هذا الجليد . وفى مرة من المرات كاد الأسطول يغرق بسبب قوة التيار

الشديدة، وبسبب عدم مقدرة المجدفين على مواجهته.

وعندما اقترب الفرنسيون من خليج مكسيكو تناقص الطعام، لأنهم لم يستطيعوا صيد الحيوانات من مستنقعات دلتا النهر، ولكن الهنود احضروا لهم اللحم الذى وجده الفرنسيون جيدا ولذيذا. وبعد ذلك علم رجال البعثة ان هذا اللحم لحم آدمي. وفى أثناء تقدمهم كتب احد الكهنة يقول "لقد اكتشفنا بحرا مفتوحا فى التاسع من شهر أبريل عام ١٦٨٢م، وبكل تواضع ممكن أنجزنا مهمتنا، وبعد أن أنشدنا الترانيم إستولى المستر لاسال * على النهر باسم السيد صاحب الجلالة. كما إستولى على جميع الأنهار التى تتصل به، وكذلك على القطر الذي يروى بمياه هذه الأنهار. وبعد ذلك ، عاد لاسال الى فرنسا، يحدوه الأمل فى توطيد حق فرنسا فى كل منطقة وادى المسيسبى، وبحث عن رجال وأموال للمستعمرة التى سيؤسسها فى المقاطعة التى كان قد منحها من قبل. وقد وافق ملك فرنسا لويس الرابع عشر على خطته الرامية الى تأسيس مستوطنة فى المنطقة الواقعة بين فلوريدا ومكسيكو، وعلى مسافة مئات الأميال القليلة من مصب نهر المسيسبى.

وبعد ذلك بسنتين، عاد لاسال الى أمريكا، وبرفقته ٤٠٠ مستعمر وجندى. وفى عام ١٦٨٤م، قرر لاسال الإبحار الى خليج مكسيكو بحيث يدخل الى وادى المسيسبى من النهاية الجنوبية. وتجنب مصب النهر، بحيث رسا بعيدا جهة الغرب أى من خليج متاجوردا Matagorda، الواقع فى تكساس. وهناك شيد لاسال حصن القديس لويس ، كما أسس أيضا مستعمرته التى منيت بالفشل. وفى يناير من عام ١٦٨٧م قتلت المجاعة والمرض الجميع باستثناء واحد وأربعين من رجال لاسال. وأصبح موقفهم سيئا، ومع ذلك قرر لاسال وستة عشرة أخرون الوصول الى وطن الينوى، الواقع على مسافة بعيدة، وذلك بغرض المساعدة ، وفى طريقهم الى جهة الشمال عبروا تكساس وفى تلك الأثناء، اصطادت البعثة جاموسة. وفى نفس الوقت،

---

* فى التاسع من شهر ابريل عام ١٦٨٢م، وصل لاسال الى مصب نهر المسيسبى وهناك أعلن ملكية هذا النهر للملك البوربونى لويس الرابع عشر ملك فرنسا وسمى لاسال المقاطعة الفرنسية باسم لويزيانا، وذلك تشريفا لملكة البلاد الفرنسية (المؤلف).

الذى كان فيه لاسال يقوم بمناقشة رجاله بهدف تزويد البعثة بالإمدادات الغذائية ، أطلق عليه أحد رجاله النيران من مكمن فأراده قتيلا، وهكذا وبسبب صراع أحمق انتهت حياة المستكشف الكبير فى يوم التاسع عشر من شهر مارس عام ١٦٨٧م.

الركـــن الأخـــير

عندما عاد مارتن فروبشر من رحلته الى انجلترا عبر المحيط الأطلنطى، ادعى ان والده هو الذى اكتشف الممر الذى يقع فى أقصى شمال أمريكا، الذى كان فى الحقيقة يمثل المدخل الطويل المعروف فى وقتنا الحاضر بخليج فروبشر، وحتى ذلك التاريخ لم يكن أحد يعرفه. وقد أثارت قصة لاسال مستمعا جادا وشجاعا وقرصانا بحريا جسورا، الاوهو فرنسس دريك Francis Drake، الذى رسم خطة جريئة تتمثل فى الإبحار الى الباسفيك، والإغارة على السفن الأسبانية التى تحمل من بيرو كنوز الذهب والفضة، زد على ذلك إنه لو كان ما اكتشفه فروبشر مضيقا حقا فإنه يكون من الممكن بالنسبة لدريك، الدخول اليه من المحيط الهادى والمحيط الأطلسى. واذا نجح دريك فى الأغارة على السفن الأسبانية التى تسير فى المحيط والتى تحمل ثروات ثمينة، فإنه من الواجب عليه فى هذه الحالة ان يتخذ طريقه الى الوطن عبر مضيق فروبشر. ففى أواخر عام ١٥٧٧م أبحر دريك من أنجلترا فوصل الى الباسفيك مارا عبر مضيق ماجلان. وهناك قام بنهب السفن الأسبانية فى موانىء كل من أمريكا وكالوا، وهاجم أيضا السفينة التى تحمل الكنز، والتى كانت على مسافة بعيدة من شاطئ بيرو. وقد قدرت هذه الشحنة التى نهبت بما قيمته ٥ ملايين دولار من العملة فى الوقت الحاضر.

واستمر دريك فى المسير صوب الشمال طبقا للخطة، وكان قد بدأ البحث عن الطريق المائى الذى يوصل الى المحيط الأطلسى. وقبل ذلك بعدة سنوات كان البحارة الأسبان قد اكتشفوا الساحل الغربى وربما اكتشفوا ايضا أوريجون، ولكن لم يمنع هذا دريك من الذهاب الى شاطئ كاليفورنيا، ومعلنا ان هذه الأرض تخص الملكة اليزابيث وسماها نوفا البيون Nova Albion (نيوانجلند) وهناك غرس عمودا فى الأرض، ووضع عليه لوحة نحاسية نقش عليها إسم الملكة. وكان دريك قد رسا فى هذه المنطقة يوم ١٧ من شهر يونيوعام ١٥٧٩م، وكان هدف بريطانيا فى ذلك الوقت، يتمثل فى إمتلاك كل هذه المنطقة التى اكتشفها دريك. وقد ثبت نصف شلن من الفضة على

اللوحة، وذلك ليضيف صورة الملكة وهى فى زيها الرسمى. وبعد أن انجز دريك هذا العمل، استأنف كشفه عن المضيق، ولكن بعد أن اكتشف غالبية الساحل حتى مصب نهر كولومبيا تخلى عن مهمته، مع إنه كان يتحسس طريقه من خلال طبقات الضباب السميكة والرديئه الرؤية، بل وذات الرائحة الكريهة. ولكى يعود من نفس الطريق فإن هذا يعنى المخاطرة، بل ويعرضه للأسر من جانب السفن الحربية الأسبانية، فبدلا من ذلك، بدأ طريقه صوب الغرب عبر المحيط الهادى. وفى عام ١٥٨٠م وصل الى بليموث بانجلترا، ويعد دريك بهذا العمل الرجل الثانى فى التاريخ الذى طاف حول العالم.

وظلت المنطقة التى يلتقى فيها الشرق بالغرب – والتى تفصل سيبريا الشرقية عن آلاسكا الغربية، والتى تبلغ المسافة بين شاطئيها ٥٦ ميلا – مجهولة بالنسبة للأوربيين مدة ١٥٠ عاما. ومع ذلك، فقد كان بطرس الأكبر– أكبر قياصرة روسيا تخطيطا للمشاريع – يتوق شوقا لتوسيع إمبراطوريته داخل الحدود الشرقية لسيبريا، كما كان كذلك يرغب فى معرفة ماإذا كانت الأطراف الشرقية لسواحل آسيا تتصل بالطرف الغربى لأمريكا الشمالية أم لا، ولكى ينجز بطرس الأكبر هذا العمل خطط لإرسال سفينة من شبه جزيرة كامشاتك Kamchatke، الشاسعة والواقعة فى سيبريا، وكانت كامشاتك * هذه عبارة عن نتؤ فى المحيط الهادى، يبلغ طوله ٥٠٠٠ ميل ابتداء من سنت بطرسبرج. ويمتد معظم هذا الطريق عبر قناة غير مطروقة، وبعيدة عن المراكز الأمامية الشرقية لتجارالفراء السيبريين، وكان الوصول الى هناك من روسيا يتطلب قوة أو مهارة خارقة. واذا وضعنا جانبا اى حديث عن نقل المعدات والمواد اللازمة لبناء السفن، فإن الوصول من روسيا الى هذه المناطق يتطلب مجهودا يفوق طاقة البشر.

وكان بطرس قد مات قبل أن تبدأ البعثة مهمتها، ولكن أرملته الإمبراطورة كاترين، قد قررت أن تقوم هى بتنفيذ خطته، ففى عام ١٧٢٤م ألقى هذا الواجب

* تميزت شبه جزيرة كامشاتكا ببناء بيرنج لسنت جبريل، وكان قد أبحر من خلال مضايق إنيار Anian، التى سمت فيها بعد بمضيق بيرنج (المؤلف).

الضخم على عاتق فيتوس بيريج Vitus Bering وهو ضابط دانماركى بحرى كان قد ساعد بطرس القيصر فى بناء الأسطول الروسى. وبعد أكثر من ثلاث سنوات فى العمل الشاق والجهد المتواصل نجح بيرنج فى الوصول الى شاطئ كامشاتك وهناك شيد سفينة للإبحار بلغ طولها ٦٠قدما. وأسماها سنت جبريل Saint Gabriel وفى صيف عام ١٧٢٨م، بدأ بيرنج الإبحار ، فسار مدة شهر فى إتجاه الشمال، متتبعا الساحل الأسيوى الرئيسى بكل دقة. وقد أنجز الكثير من الرحلة فى الضباب. وفى ١٤ من شهر أغسطس انحرف مع الشاطئ إنحرافا فجائيا نحو الغرب، تاركا أمامه بحراً مفتوحا. ومع ذلك ، واصل طريقه لمدة يومين آخرين فى إتجاه الشمال، ولكن لم يجد أثراً لليابسة. وبما أن بيرنج قد أبحر الى خط عرض ٦٧° ١٨° فإنه بذلك يكون قد عبر فى الواقع دائرة القطب الشمالى. ومر من خلال مضيق يقع بين آلاسكا وسيبريا، أطلق عليه فيما بعد اسم (مضيق بيرنج)، وبعد ذلك وصل الى بحر الشمال، فهل كان الطقس مشرق فى هذا الوقت؟ فالأجابة عن ذلك تقول:لا، فهو لم يستطع رؤية كل من الشواطئ الشرقية والغربية، فقد كانت الاسكا عن يمينه وسيبريا عن يساره، وباقتراب نهاية فصل الصيف القصير، لم ير بيرنج شيئا وهو فى سفينته الصغيرة، التى لم تشيد لتقاوم عواصف شتاء المنطقة القطبية، لهذا قفل بيرنج عائدا، واعتقد إنه قد ذهب فيما وراء المنطقة الشمالية القطبية التى تمتد من شاطئ سيبريا، ولذلك ظن أن أسيا وأمريكا غير متصلتين. وكان ظنه صحيحا. وذلك لأن الضباب كان قد منعه من فحص اكتشافه. لهذا ظل كشفه مشكوكا فيه. وفى ربيع من عام ١٧٣٠م وصل بيرنج عائدا الى سنت بطرسبرج بعد غياب دام خمس سنوات، ولم يصدق جغرافيو الحكومة الروسية، أن المكتشف قد أبحر عبر المياه التى تفصل آسيا عن أمريكا، وقد أغضبه شك الجغرافيين فى إنجازاته. لذلك نجده فى عام ١٧٣٣م، يحصل على تصريح يخول له القيام على رأس بعثة كشفية مرة ثانية الى كامشاتك كى يكتشف المناطق البعيدة. وفي هذا الوقت بنى بيرنج أكثر من سفينتين، وأبحر عبر شمال الباسفيك حتى وصل الى ساحل آلاسكا – بسبب التعب والمرض والعطش وكبر السن حيث بلغ من العمر ٦٠عاما – وهناك أمر رجاله بالعودة على ظهر سفينته الى أرض الوطن. ومن المرجح

أن يكون السبب راجعا الى مرض الأسقربوط المخيف الذى بدأ ينتشر فيما بينهم. وعندئذ ، بدأت سفينته (سنت بطرس) المسير وسط العواصف الشديدة ، وقد اندفعت السفينة – فى أثناء العودة – الى تجويف فى جزيرة تقع على مسافة ١٠٠ ميل من كامشاتك، وباختصار ، بعد أن نزل طاقمها من على ظهرها، وذهب الى الشاطئ ، وحطمتها عاصفة عنيفة الى قطع صغيرة . وبعد أسابيع قليلة ، أى فى ديسمبر عام ١٧٤١م، مات بيرنج فى مأوى بسيط يوجد فيما نعرفه فى الوقت الحاضر بجزيرة بيرنج.

ولايزال الكثيرون يرفضون الشكوك فى كشف بيرنج، تلك الشكوك التى استمرت حتى عام ١٧٧٨م وبخاصة أن الضابط الإنجليزى الكابتن كوك كان قد مر من خلال مضيق بيرنج، وطاف من حول الرأس الشرقى. وقد أبحر فى إتجاه الغرب على طول الساحل السيبيرى الشمالى . وفى ذلك الوقت . كان الركن البعيد من أرض أمريكا الشاسعة قد طاف حوله البحارة بسفنهم ، وقد تمكن راسمو الخرائط من رسمه كله. وأخيرا اتضح فى أذهان الناس صورة معالم الأرض. بأبعادها الأساسية. وكذلك المعلومات التى تطورت من بدء العثور على جزيرة صغيرة فى بحر الظلمات فى صباح يوم ١٢ من شهر آكتوبر عام ١٤٩٢م، وقد استغرق رسم هذه المعـــالم ٣٠٠ عام، وقد فشل المغامرون – من أمثال كولمبس، وكابوت ودريك، وبيرنج وغيرهم من الذين فحصوا الشاطئ جزءا جزءا – فى العثور على بقيتهم، ولكن قد تحقق من فشل كل منهم نجاح أكبر مما كان يحلم به أى منهم، وتحقق أيضا شئ أفضل مما كانوا يبحثون عنه، وقد ساعد فى إضافة ماأنجزه كل منهم فى حياته إلى ماأنجزه الآخرون فى حل أعظم لغز على الأرض وهو لغز أمريكا. وبعد أن خابت آمالهم حققوا نجاحا أكبر، فكان الواحد منهم يحلم بتحقيق شئ كبير، يمكن أن يقوم هو بتحقيقه، وكان هناك أشياء كثيرة، أفضل من الأشياء التى يبحثون عنها ، فكل واحد من هؤلاء الرجال ساهم فى على الأرض، ألاوهو لغز أمريكا، هذا فضلا عن القيام بأعمالهم الخاصة فى الحياة العامة.

الفهـــــرس

